الفصل الثانى

الحياة الاجتماعية

١

طبقات المجتمع

كان يتوزَّع مجتمعَ العصر العباسى الثانى ثلاثُ طبقات أساسية : طبقة عليا تشتمل على الخلفاء والوزراء والقواد والولاة ومن يلحق بهم من الأمراء وكبار رجال الدولة ورءوس التجار وأصحاب الإقطاع من الأعيان وذوى اليسار ، وطبقة وسطى تشتمل على رجال الجيش وموظفى الدواوين والتجار والصناع الممتازين ، ثم طبقة دنيا تشتمل على العامة من الزُّراع وأصحاب الحرف الصغيرة والخدم والرقيق ، ويأتى فى إثر تلك الطبقات أهل الذمة .

وكانت الطبقة الأولى تغرق فى النعيم ، يتقدمها الخلفاء وكانت تُجْبَى إليهم أموال الخراج من سواد العراق وأقاصى الدولة وأدانيها غير ما كان يجبى من المكوس على الواردات والصادرات ، وعادة كان الوالى يرسل إلى بغداد ما تبقى لديه من الإنفاق على شئون إمارته وحاجتها من المساجد والبيمارستانات ومَنْ بها من الجند والموظفين . وذكر ابن خرداذبة أن الدخل من سواد العراق لسنة ٢٤٠ للهجرة بلغ ثمانية وسبعين مليونًا من الدراهم ، وبلغ دخل جزء منه فى عهد المعتضد لسنة ٢٨٠ مليونين وخمسمائة وعشرين ألفًا من الدنانير[١] . وتدهور الدخل فى عهد المقتدر ومع ذلك نرى خراج سواد العراق يبلغ مليونًا وخمسمائة وسبعة وأربعين ألف دينار ، ويورد الصابى مع هذا الإحصاء الدخل العام لعهده فى سنة ٣٠٦ ، ويذكر أنه بلغ أربعة عشر مليونًا وثمانمائة وتسعة وعشرين ألفًا وثمانمائة وأربعين دينارًا[٢] .

---

(١) كتاب الوزراء للهلال بن المحسن الصابى ص ١٠ وما بعدها .

(٢) رسوم دار الخلافة للهلال الصابى ص ٢١ .

وكانت هذه القناطير المقنطرة من الدراهم والدنانير تُنْفَقُ سنويًا ، وقلما كان يتبقى منها شيء ويقال إنه لما ولى المعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩ هـ) ادَّخر من كل سنة من سنى خلافته مليونَ دينار ، بلغ ما ادخره تسعة ملايين [١] ، وخلفه ابنه المكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥ هـ) ، فبلغ بالمدَّخر أربعة عشر مليونًا [٢] . وجاء بعده المقتدر فلم يقف عن الادخار فحسب ، بل أتلف كل المدَّخر مع ما صار إليه من أموال الخراج سنويًا ومما كانت تُغلّه الضياع السلطانية الواسعة ، حتى قالوا إنه بدَّد — كما مرَّ بنا فى الفصل الماضى — ثمانين مليونًا من الدنانير . ويورد الصابى فى كتابيه : الوزراء ورسوم دار الخلافة أثباتًا [٣] بما كان يُنْفَقُ على حواشى الخليفة وداره فى عصر المعتضد والمقتدر (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) ، وهى تصور عِظَمَ هذه النفقات . فقد كان يُنْفَقُ على القصر والحرم والخدم أكثر من ستين ألف دينار شهريًا وكان يُنْفق على المطابخ الخاصة والعامة أكثر من عشرة آلاف دينار شهريًا ، بل قد يبلغ ذلك أكثر من ثلاثين ألفًا ، غير ما يُنْفَقُ على البوابين من البيض والسودان وكان يبلغ ألف دينار ، وغير ما يُنْفَقُ على المماليك والحرس وكانوا يُعَدُّون بالآلاف ، وغير ما ينفق على المرسومين لخدمة الدار من القرَّاء وأصحاب الأخبار والمنجمين والبوقيين والمضحكين والطبالين وأصحاب الصيد والملاَّحين فى السفن وأصحاب المشاعل والأطباء ، ويقول الصابى إن نفقة ذلك كله وما يجرى مجراه مما يلزم الدار كان يبلغ أكثر من مليونين وخمسمائة ألف دينار سنويًا . ويقال إنه كان فى الدار لأيام المكتفى عشرون ألف غلام للحرس وعشرة آلاف خادم من السود والصقالبة ، أما فى أيام المقتدر فكان بها أحد عشر ألف خادم منهم سبعة من السود وأربعة من الصقالبة وأربعة آلاف امرأة بين حرة ومملوكة وألوف من الغلمان الحُجْرية (المقيمين فى الحُجَر) ، وكانت النوبة لحفظة الدار خمسة آلاف غير أربعمائة من الحراس ، وكان عدد الفراشين ثمانمائة [٤] . ويروى المؤرخون أن الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ) ، عمل على القَصْد الشديد فى نفقات دار الخلافة ، حتى بلغت مع

---

(١) كتاب الوزراء ص ١٨٩ .
(٢) كتاب الوزراء ص ١٩٠ .
(٣) الوزراء ص ١١ وما بعدها ورسوم دار الخلافة ص ٢١ ويذكر الصابى فى الكتاب الأول أن نفقات الحضرة لعهد المعتضد كانت سبعة آلاف دينار يومياً .
(٤) رسوم دار الخلافة ص ١٠ ويقال إن الخدم فى عهد المتوكل كانوا سبعمائة . انظر الديارات للشابشتى (الطبعة الثانية) ص ١٦٠ .

شدة الحذف والاقتصاد ثلاثة آلاف دينار [١] يوميًّا .

وقد بدأ العصر بالمتوكل ، ويقال إن النفقات لم تبلغ فى عصر من عصور الخلفاء ما بلغته فى عصره ، وخاصة فى بناء القصور ، وقد أحدث فيها البناء الموسوم باسم البناء الحيرى ، وكان يُجْعَلُ فيه دون القصر ثلاثة أبواب عظام ، وكان فى الرواق مجلس الخليفة ، وأمامه بيتان بهما خواصه وعلى اليمين خزانة الكسوة وعلى اليسار ما يُحْتَاج إليه من الشراب [٢] . وكان كلما بنى قصراً أتبعه بآخر ، حتى بلغت قصوره نحو العشرين ، وهى : بركوار (دار الهناءة) والشاه والعروس والبركة والجوسق والمختار والجعفرى والغريب والبديع والصبيح والمليح والشبداز والقصور والجامع والقلاية والبرج والمتوكلية والبهو واللؤلؤة ، وبلغ ما أنفقه على تلك القصور مائتين وأربعة وسبعين مليونًا من الدراهم [٣] . وكان البرج من أجملها زينة إذ جُعل فيه صور عظيمة من الذهب والفضة ، وبركة جُعل فرشها ظاهراً وباطنًا صفائح الفضة ، وشجرة ذهب على أغصانها وفروعها طيور تغرّد وتصفر مكللة بالجوهر ، وسُميت طُوبى (من أشجار الجنة) . واتُّخذ له سرير كبير من الذهب عليه تمثالا سبعين عظيمين ودرجٌ عليه صور السباع والنسور . وألْبست حيطان القصر من الداخل والخارج بالفسيفساء والرخام المذهب ، ويقال إن نفقة هذا القصر وحده بلغت مليونًا وسبعمائة ألف دينار [٤] . وتبارى الخلفاء بعد المتوكل فى بناء القصور ، فبنى المعتز ابنه قصره المعروف باسم التاج أو الساج وكان قصراً ضخمًا [٥] ، وبنى المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩ هـ) قصره المعشوق على شاطئ دجلة [٦] ، وبنى المعتضد قصر الثُّرَيَّا ، وكان أبنية متلاصقة ، ووصل بينها وبين قصر التاج بسرداب طويل لتمشى فيه حظاياه ، وفيه يقول ابن المعتز [٧] :

وبُنْيان قَصْرٍ قد علتْ شُرفاتُه كصفِّ نساءٍ قد تربَّعْنَ فى الأُزْرِ

---

(١) رسوم دار الخلافة ص ٣٠ .
(٢) مروج الذهب ٤/٤ .
(٣) الديارات للشابشتى (الطبعة الثانية) ص ١٥٩ .
(٤) الديارات ص ١٦٠ وانظر المروج ٤٠/٤ .
(٥) انظر ياقوت فى التاج وديوان البحترى (طبع دار المعارف) ١٤٨٣/٣ .
(٦) ديوان البحترى ١٤٦٧/٣ .
(٧) ديوان ابن المعتز (طبعة دار صادر ببيروت) ص ٢١٥ وانظر معجم البلدان فى الثريا .

ولعل فى كثرة هذه القصور ما يشير إلى أن دار الخلافة كانت واسعة ، وكان القصر الواحد أحيانًا يمتد إلى فرسخ أو يزيد ، ويقال إن قصر الثريا كان يمتد إلى ثلاثة فراسخ وإنه كلّف المعتضد — كما قدمنا فى الفصل الماضى — أربعمائة ألف دينار . وكأنما كانت دار الخلافة وقصورها أشبه بمدينة ، ومرّ بنا آنفًا عدد من كان بها فى عصر المكتفى والمقتدر من الغلمان والحرس والخدم ، وأنهم كانوا يُعَدُّون بالآلاف ، فطبيعى أن يكون بها فلاحون وأكرة للعمل ومساجد وحمامات تفوت الحصر حتى قالوا إن الحمامات بلغت بها أحيانًا أربعمائة[1] . وكانت الدار تشتمل على بساتين وجداول متصلة بدجلة وقباب شتى وأروقة وبرك ومياه جارية .

وكان الوزراء يعيشون فى هذا النعيم نفسه لما كانوا يأخذونه من رواتب ضخمة وإقطاعات وما كانوا يختلسونه لأنفسهم من أموال الدولة ، ويقال إن الوزير كان يأخذ إقطاعًا يدرُّ عليه مائة وسبعين ألف دينار ، حتى إذا كان عهد المقتدر أُجْرِى عليه راتب قدره خمسة آلاف دينار فى كل شهر ، ثم صار سبعة آلاف[2] . ولكى نتصور مبلغ ثراء الوزراء يكفى أن نعرف أن المعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) استخلص — كما مر بنا فى الفصل الماضى — من وزيره سليمان بن وهب وابنه عبيد الله نحو مليون دينار ، ويروى أنه أحْصى ما وجد لوزيره صاعد من الرقيق والمتاع والكسوة والسلاح والآلات فى خاصة نفسه دون ما وُجد لأخيه عبدون فكان مبلغه ثلثمائة ألف دينار ، وكان مبلغ غلته فى سائر ضياعه مليونًا وثلثمائة ألف[3] . ويذكر المؤرخون عن ابن الفرات وزير المقتدر أنه كان يملك — كما ذكرنا فى غير هذا الموضع — من الفضة والضياع والأثاث ما يزيد على عشرة ملايين من الدنانير . وكانت لسليمان بن وهب دار كبيرة جعلتها الدولة بعده لكل وزير حتى سنة ٣٢٠ ، وكانت تسمى دار المخرَّم ، وكانت مساحتها تربو على ثلثمائة ألف ذراع[4] . وكانت دار ابن الفرات مدينة ضخمة حتى كان بها فوجان من الخياطين[5] ، ويقال إنه

---

(١) رسوم دار الخلافة ص ٨ .
(٢) كتاب الوزراء ص ٢٨٢ ، ٣٥١ .
(٣) مروج الذهب ٤/١٢١ .
(٤) مسكويه ٥/٤١٠ .
(٥) كتاب الوزراء ص ١٧٦ .

لما عُين وزيراً زاد ثمن الشمع فى يوم تعيينه لأنه كان من رسمه ألا يخرج أحد من داره وقت العشاء إلا ومعه شمعة، وسُقى فى داره فى ذلك اليوم وليلته أربعون ألف رطل ثلجًا[١].

وكان للوزير بدار الخلافة بناء مفرد يجلس فيه والخواصّ والحواشى بين يديه إلى أن يستدعيه الخليفة ، وكان يَغْدو إليه الكتّاب ، فيقفهم على الأعمال المطلوبة منهم ويسلم إلى كل كاتب ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد منه ، ثم يروحون إليه بما عملوا ، وفى أثناء ذلك تُعْرَض عليه الكتب بالنفقات والتسبيبات والحسبانات[٢]، والكتّاب جلوس بين يديه كلٌّ فى مكانه ومعه دواته .

وكان الوزير يتخذ مثل الخليفة حرسًا على باب داره وقد يُعَدون بالعشرات[٣] وكان مجلسه يَغَصُّ بغلمان مسلّحين ، وكان يركب إلى دار الخلافة وبين يديه الحجاب والقواد والغلمان ، ويقال إنه كان لحامد بن العباس أحد وزراء المقتدر أربعمائة مملوك يحملون السلاح أمامه ، ولكل مملوك نفر من المماليك والغلمان يتبعونه ، ويُروى بعض الكتاب أنه أحصى الموائد المنصوبة فى داره فوجدها ثلاثين ونيفًا ويقال ، بل كانت أربعين ، وكان يجلس إلى كل مائدة ثلاثون رجلا ، وعلى كل واحدة جدى أو جداء وبوارد وحلوى مما لذ وطاب[٤]. وكان الوزير يتولّى إدارة مالية البلاد والقيام على الدخل والخرج وفرض الضرائب . واشتهر غير بيت بتوليه الوزارة مثل بيت بنى وهب وأصلهم من نصارى العراق ، وعمل كثير منهم فى الدواوين وبلغوا فيها أعلى المناصب ، أما الوزارة فتولاها منهم فى هذا العصر أربعة ، كان فى مقدمتهم سليمان بن وهب الذى مرَّ بنا ذكره ثم ابنه عبيد الله ، ثم ابن عبيد الله القاسم ، ويقال إن المكتفى زوَّج ابنه أبا أحمد من ابنته ، وإنه خلع عليه أربعمائة خلعة ، أما الصداق فكان مائة ألف دينار[٥]، وأنفق على

---

(١) كتاب الوزراء ص ٦٣ ، ١٩٥ .
(٢) كتاب الوزراء ص ٢٣٨ .
(٣) كتاب الوزراء ص ١٢١ .
(٤) كتاب الوزراء ص ١١٢ والنجوم الزاهرة ٣/٢٠٨ والهمدانى ص ٢٠ ، ٣٧.
(٥) النجوم ٣/١٣١ .

الوليمة أكثر من عشرين ألف دينار[١].

وعلى نحو ما كان الوزراء والخلفاء يعيشون فى هذا الترف كان يعيش فيه أيضًا القواد ، وكان بيدهم مصير الخلفاء وكانوا يفدون أنفسهم منهم بكل ما يطلبون من أموال ، وكانوا يُقْطعونهم إقطاعات كثيرة على نحو ما كانوا يقطعون الوزراء ، فكانت لهم ضياع واسعة تغلُّ عليهم أموالا وفيرة ، ولعل خليفة لم يكثر من الإقطاع لهم كما أكثر المقتدر ، ويقال إن إقطاعات يانس الموفقى فى عهده كانت تغلّ سنويًّا ثلاثين ألف دينار . وبلغ حينئذ من مكانة القواد أن خلع المقتدر على مؤنس لقب المظفر[٢] ، ولما قدم بغداد فى عام ٣١٢ للهجرة ركب الوزير ابن الفرات للسلام عليه وتهنئته بمقدمه[٣] ، وهو ما لم تجربه عادة وزير من قبله ؛ فقد أصبح القواد يقدَّمون على الوزراء . وكان لهم حجّابهم ومماليكهم وحشمهم وخدمهم ونفقاتهم الواسعة على نحو ما كان للوزراء . وبالمثل كان ولاة الأقاليم ، وكان حامد ابن العباس الذى مر بنا ذكره قبل توليته الوزارة للمقتدر واليًا على فارس والبصرة ومن ولايتهما كوَّن ثروته الواسعة . ويُرْوَى أن خمارويه صاحب مصر حين زوَّج ابنته قطر الندى من المعتضد الخليفة العباسى حمل معها من الجهاز ما لم يُرَ مثله ولا يُسمع به ، وكان ابن الجصاص الجواهرى البغدادى القائم على الجهاز ، ويقال إنه سأله هل بقى بينى وبينك من الحساب شىء ؟ فأجابه كَسْرٌ (باق) طفيف وإذا هو أربعمائة ألف دينار[٤] ، فما بالنا إذن بنفقات الجهاز كله . ويتوقف المؤرخون ليقصوا لنا هدايا الصفار والى فارس للمعتضد وما كان معها من تماثيل وملايين الدراهم وصناديق الثياب[٥] . وكان مما أرسله إسماعيل بن أحمد السامانى والى خراسان إلى المكتفى سنة ٢٩٢ ثلثمائة بعير عليها صناديق فيها المسك والعنبر والثياب من كل لون[٦] . وكأنما أموال الولايات ودخولها كانت ملكًا للولاة ينفقونها فى بذخهم ويهدونها بحسب مشيئاتهم . وتوفى لسنة ٣٠١ على بن أحمد الراسبى وكان متوليًا من حدود واسط فى العراق إلى جُنْديسابور ومن السوس إلى شهرزور ، وخلَّف مليون دينار ومن آنية الذهب والفضة ما قيمته مائة ألف دينار

---

(١) عريب ص ٥٣ .
(٢) النجوم ٣/٢٠٣ .
(٣) الوزراء ص ٥٠ .
(٤) النجوم ٣/٦٢ .
(٥) مروج الذهب ٤/١٤٨ .
(٦) النجوم ٣/١٩٦ .

ومن الخزّ ألف ثوب ، وخلّف ألف فرس وألف بغل وألف بعير ، وكان له ثمانون طرازاً (مصنع ثياب) تُنْسج فيها الثياب التى لملبوسه[١] ولملبوس حُرَمه وحواشيه وخدمه .

وكان أبناء البيت العباسى يتقاضون من الدولة رواتب ثابتة ، ومثلهم العلويون والهاشميون بصفة عامة ، وكثيرون منهم كانوا يتولون مناصب هامة ، وكان منهم دائمًا من يحج بالناس فى كل عام . وكان الخلفاء ما يزالون يقطعون المقرَّبين منهم إقطاعات وضياعًا كثيرة ، بالإضافة إلى كثير من الضياع التى كانوا يَرِثُونها عن آبائهم وأجدادهم . وكان الوزراء كثيراً ما يتقربون إليهم بالهدايا والعطايا ، ويقال إن على بن عيسى وزير المقتدر كان ينفق فى كل سنة ـ على شُحِّه ـ أربعين ألف درهم فى صلات الطالبيين والعباسيين وأولاد الأنصار والمهاجرين وفى مصالح الحرمين[٢] وكان المعتضد يُجْرِى على أبناء المتوكل وأولادهم ذكوراً وإناثًا ألف دينار شهريًّا ، وكان يُجْرى على أولاد الواثق والمهتدى والمستعين خمسمائة دينار فى الشهر[٣] .

وأعان ذلك كله على اتساع الطبقة الأرستقراطية وأن تنشأ أجيال من أبنائها غارقة فى الدعة والنعيم ، وفى مقدمتهم أبناء الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء وبالمثل أبناء كبار الكتاب ، وكثيراً ما كان يصل آباؤهم إلى الوزارة ، وحتى من لم يصل إلى الوزارة كان يتقاضى أحيانًا مائة دينار فى الشهر وقد يرتفع راتبه إلى خمسمائة[٤] ، غير ما كان يأتيهم من الهدايا وأحيانًا من الرشوة وخاصة من عمال الخراج . وكان منصب القاضى منصبًا رفيعًا ، وكان يتقاضى راتبًا عاليًا مائة وعشرين أو مائتين من الدنانير[٥] ، ومن الحق أن منهم من كان يتعفف عن أخذ شىء نظير عمله ، ولكن من الحق أيضًا أن منهم من كان مترفًا موسَّع الرزق مثل إبراهيم بن جابر القاضى بحلب والعواصم من أرض الشام إذ يروى المسعودى أنه « قطع لزوجته أربعين ثوبًا تُستَرِيًّا وقصبًا (حريراً) وأشباه ذلك من الثياب فى يوم واحد وخلّف أموالا عظيمة »[٦] .

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/١٨٣ .

(٢) كتاب الوزراء ص ٣٢٢ .

(٣) كتاب الوزراء ص ٢٠ .

(٤) كتاب الوزراء ص ١٥٦ وانظر ص ٢٠ ، ٣١٤ .

(٥) الولاة والقضاة للكندى ص ٣٧٧ ، ٤٢١ .

(٦) مروج الذهب ٤/١٧٤ .

وكان يدخل فى هذه الطبقة الأرستقراطية ورثة الإقطاع والضياع الواسعة وكبار التجار الذين كانوا يتجرون برءوس أموال ضخمة فى مطالب تلك الطبقة من أدوات الترف والزينة ، وكان فى مقدمتهم النخاسون الذين كانوا يجلبون الرقيق والجوارى من أطراف الأرض ، وتجار الطرَف النفيسة التى كانت تجلبها السفن من جميع أنحاء العالم . وبالمثل تجار الجواهر ويكفى أن نذكر ابن الجصاص التاجر الجوهرى البغدادى الذى أشرف على جهاز قَطْر الندى بنت خمارويه كما أسلفنا ، فقد هيأ لها من الثياب والجواهر وأدوات الزينة ما كلف أباها مئات الألوف ، وحين صودرت أمواله لعهد المقتدر سنة ٣٠٢ للهجرة أُخِذَ منه من المال والجوهر ما عُدَّ بالملايين حتى قيل إنه بلغ ستة عشر مليونًا من الدنانير ، ويقول المسعودى : « الذى صَحَّ مما قُبض من ماله من العين (الذهب) والوَرِق (الفضة) والجوهر والفرش والثياب والمستغلات خمسة ملايين وخمسمائة ألف دينار »[١] . وكانت كل طائفة من التجار تقيم فى سوق واحد فيقال سوق النخاسين وسوق الوراقين ، وكان من أقربهم إلى الترف البزازون (تجار الأقمشة) والعطارون . وكانت أسواق الأخيرين وأصحاب الدهون والخزازين (تجار الحرير) والجوهريين والصيادلة بعضها إلى جانب بعض ببغداد . وكان الأطباء يحصلون على أموال ضخمة ، وخاصة أطباء دار الخلافة وبيمارستانات بغداد ، وتزخر كتب طبقات الأطباء بملايين الدراهم والدنانير التى صارت إليهم من الخلفاء ، ويقول محمد بن زكريا الرازى الطبيب المشهور إن سبب تعلقه بتعلم الطب إنه أصيب برمد فى عينيه ، فأبى الطبيب الذى عرض نفسه عليه أن يعالجه إلا بخمسمائة دينار[٢] . وحتى الشعراء والعلماء والندماء كان منهم من يغدق عليهم الخلفاء الصلات ، وكذلك الوزراء ، حتى ليغدون من عِلْية القوم مثل على بن يحيى المنجم الذى أثرى ثراء طائلا من منادمته للخلفاء .

وإذا تركنا الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وجدنا كثيرين يندمجون فيها ، وفى مقدمتهم علماء العربية والفقه والتفسير والحديث ، وكان كثير منهم يأخذ رواتب

---

(١) مروج الذهب ٤/٢١٨ والنجوم ٣/١٨٥ .

(٢) حكماء الإسلام للبيهقى ص ٢١ .

من الدولة ، وكان منهم معلمون يختلف إليهم الناشئة ، وكانوا يدفعون إليهم أجوراً قليلة ، حتى لقد تكون رغفاناً من الخبز أحياناً ، وكانت هذه الرغفان تختلف اختلاف أسر الصبيان فى الغنى والفقر ، ولذلك ضُربت الأمثال فى الاختلاف والتفاوت بتفاوت رغفان المعلم واختلافها فى الجودة ، وكان من الآباء من يدفع أجر أولاده دراهم معدودة . وكان من يعلم أولاد الطبقة العليا تنهال عليه الهبات ويقدَّر له راتب شهرى معلوم .

ويدخل فى عداد هذه الطبقة المغنون والشعراء وكان كثير منهم تتدفق عليه الأموال تدفقاً ، وسنعرض لذلك فى موضع آخر ، والمهم أن هذا التدفق كان خاصاً بأفراد منهم ارتفعوا إلى الطبقة الأرستقراطية وعاشوا فى بذخ وترف شديد ، أما عامتهم فيُسْلَكون فى الطبقة الوسطى ، وقد رأينا كبار الكتاب فى الدواوين ينتظمون فى الطبقة العليا ، ولكن كان وراءهم عشرات إن لم يكن مئات يعملون فى الدواوين ويأخذون رواتب متوسطة ، وخاصة فى دواوين الخراج ودواوين الجيش وفى أعمال الحسبة ورقابة الأسواق وفى البريد ودواوين الأخبار وفى المكوس والضرائب الجمركية . ويُضَمّ إلى كتّاب الدواوين وعمّالها رؤساء الجند ممن يَلُونَ القادة ، فلم تكن لهم رواتبهم الرفيعة ، ولكن كانت لهم رواتب متوسطة تكفل لهم رزقاً حسناً .

ومن هذه الطبقة أوساط الصناع وخاصة من كانوا يقومون على أثاث المساكن والأزياء والطعام ، ويدخل فى الأثاث صناعة البسط والسجاجيد والنمارق والمقاعد والتخوت والوسائد . وكان مركز الصناعات الأسواق مثلها مثل التجارات ، وكانوا جميعاً يتناولون غداءهم بمطاعم فى أسواقهم أو فى دكاكينهم ، وكانوا لا يتركونها إلا فى المساء . وكان هناك جهابذة كثيرون لاستبدال النقود ، وكانت هناك فنادق للغرباء ، وكانت المساكن تستأجَرُ وكذلك أثاثها . وإذا عرفنا أنه كان يسكن بغداد بضعة ملايين فى تقدير بعض المؤرخين عرفنا كثرة من كان بها من التجار والصناع ، ونجد من كبارهم من كان يربح فى صفقة واحدة ألوف الدنانير[1] ، أما أوساطهم

(١) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ١٨٥ ، ٣١٩ .

فقلما كان يزيد رأس أموالهم فى تجاراتهم على ثلاثة آلاف دينار[١]، وكان الناس يودعون أموالهم لدى بعض التجار الأمناء للاتجار لهم بها مناصفة فى الأرباح. ونستطيع أن نتصور مستوى المعيشة فى بغداد مما يروى من أن الأسرة المتوسطة كان يكفيها شهرياً خمسة وعشرون درهماً، كأن نفقات اليوم المتوسطة لا تحتاج إلى أكثر من درهم واحد[٢]. وفى الفرج بعد الشدة للتنوخى خبر يدل على مستوى الحياة وأوسط ما كان الناس يتجرون فيه، إذ يُرْوَى عن شخص رقيق الحال أنه ورث أربعين ألف دينار فجأة وعلى غير انتظار، فبنى لنفسه داراً بألف دينار، واشترى آلات وفرشاً وثياباً وجوارى ثلاثاً بسبعة آلاف دينار، وأعطى تاجراً ألفى دينار ليتّجر له فيها، وخزن عشرة آلاف للشدائد، واشترى بالباقى ضيعة تُغِلُّ له فى كل سنة ما يزيد على مقدار نفقته[٣]. وقد لا يصوّر ذلك حياة الطبقة الوسطى تماماً، ولكنه يشير إلى أن نفقاتها لم تكن كبيرة، وكان يُعَدُّ من يقتنى سبعمائة دينار صاحب ثروة كبيرة، وكثير من الصناع والتجار لم تكن ثرواتهم تزيد على ذلك، وهم الذين كانوا يندمجون فى الطبقة الوسطى من الأمة.

وتأتى بعد ذلك الطبقة العامة من الرعية، وهى التى كان يقع عليها عبء العمل كله فى الزراعة وفى الصناعات الصغيرة وفى خدمة أرباب القصور، فهى التى تعمل فى الإقطاعات والضياع، وهى التى تقوم على تقديم أسباب الحياتين للطبقتين الوسطى والعليا، عاملة تارة أو صانعة، أوخادمة تارة ثانية. فكل ما تتقلب فيه الطبقتان من النعيم إنما هو من أيدى هذه الطبقة العامة، يسلبونه منها بطرق شتى ولا يبقون لها سوى الضنك والضيق والبؤس والشقاء. ومرّت بنا فى الفصل السابق ثورة الزنج وكيف أنهم كادوا يدمرّون الدولة تدميراً، لشدة نقمتهم على الأوضاع التى كانت سائدة، وما كادت تخمد حتى هبّت ثورة القرامطة، وعنفت بالدولة هى الأخرى عنفاً شديداً، وشاعت معها فكرة المهدى المنتظر الذى ينشر العدالة بين الناس فى الأرض، ولو أن دعوة القرامطة وُجهت توجيهاً سليماً على أساس العدالة التى

---

(١) البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ١٠١.

(٢) مصارع العشاق ص ١٥٩.

(٣) الفرج بعد الشدة للتنوخى ٢/١٧.

لا تصلح حياة الناس بدونها وبيان فساد الحكم العباسى حينئذ وما داخله من جور وعسف لنجحت إلى أقصى حد ، ولكنها وُجهت توجيهاً خاطئاً على أساس دعوة باطنية ، حتى لكأنما مُحى منها مقصد الإصلاح الاجتماعى ، ولذلك أخفقت إخفاقاً ذريعاً .

ووسائل شتى كانت تُبْتَزُّ بها أعمال هذه الطبقة العامة وما بأيديها من أموال قليلة ، أما من يعملون فى الأرض من الأكرة والزراع فكانوا عبيداً لا يُتْرَكُ لهم إلا ما يسدُّ رمقهم ، وإنْ سدَّه كان ذلك شيئاً كثيراً . وأما صغار الصناع والتجار الأصاغر والفَعَلة والفَرَّاشون والبوَّابون وكل من يُؤلفون الطبقة العامة فقد كان مثلهم مثل رقيق الأرض لا يكادون يجدون ما يتبلَّغون به إلا نادراً وحين يعملون فى الدولة بأجر مهما يكن طفيفاً ، لأنه يضمن لهم القوت اليومى . وكان مَنْ يوجد لديه مال كأنما يقع تحت طائلة العقاب بسبب كثرة الضرائب التى كانت تُفْرَضُ حتى على الأسواق وما يُصنَعُ فيها وما يباع ويُشترَى . ومما زاد هذه الطبقة بؤساً أن الأسعار لم تكن ثابتة ، فكثيراً ما كان يرتفع ثمن القمح والشعير حتى يصبح حصول العامة عليهما عسيراً وحتى لتجأر بالشكوى إلى الخليفة ، على نحو ما صنع أهل البصرة فى عهد المعتضد إذ أرسلوا وفداً كبيراً إليه يشكو ما نزل بمدينتهم من غلاء فاحش آملين أن يمدَّ الخليفة لهم يد المساعدة[1]

وكانت هذه الطبقة تعمل فى كل المهن الحقيرة ، ومن المؤكد أنه نشأت طبقات كثيرة حينئذ من الحِرْفيين أو المهْنيين وأن التخصص أخذ طريقه إليهم ، فكان لكل حرفة أصحابها الخاصون ، يؤكد ذلك ما روى من أن الجاحظ لم تكن له حلقة على وجه بابه إذا أراد اصطفاقه فطلب من نجار أن يثقب له موضعها ، فلما ثقبه قال له : قد جوَّدت الثقب وانظرْ أى نجَّار يدق فيها « الرُّزَّة [2] » وكأن من النجارين مَنْ كان للثقب ومَنْ كان لتركيب الرزة ، وهو ما يعنى الاختصاص الدقيق . ولا ريب فى أن ذلك هو الذى أدَّى إلى أن تنشأ فى العالم العربى من قديم فكرة النقابات للحِرْفيين والصناع وإن كانت حينئذ

---

(١) مروج الذهب ٤/١٤٩ .

(٢) الحيوان ٣/٢٧٦ – ٢٧٧ .

لا تعدو دَوْرَ النشأة البسيطة .

وأدّى بؤس هذه الطبقة العامة إلى أن ينشأ فيها كثير من القَرَّادِين وأصحاب الملاهى الصغيرة الطَّوَّافين والحوَّائين كما ينشأ فيها كثير من المهرجين الذين ينقطعون لإضحاك الطبقتين الوسطى والعليا ، وكان منهم من يتصل بخليفة أو وزير فتبتسم له الدنيا . ونشأ فيها أيضًا كثير من رَاضَةِ الخيل والسوَّاس وأصحاب القنْص والصيد بالكلاب والفهود . ونشأت طبقة من الأدباء المتسولين المسمون بالمُكْدِين ، وكانوا حينئذ خليطًا من هؤلاء الأدباء ومن متظاهرين بالنسك ، مستعملين كل حيلة من شعر أو تُقَى أو رُقْية ، فهم يطلبون المال من كل طريق ، مستخدمين كل حيلة . ويدل دلالة قوية على ما كانت تعانيه هذه الطبقة العامة من البؤس والعيش المر أن كثر بها اللصوص ، حتى غدوا فى أوقات كثيرة مصدر خطر عظيم ببغداد ، لكثرتهم ، ولشدة فتكهم ، ويشير الجاحظ إليهم فى كتاباته مراراً كما يشير إلى رؤسائهم وأنه كانت لهم مروءة الفرسان ، وكأنهم كانوا امتداداً لصعاليك الجاهلية[1] .

ووراء تلك الطبقات الدنيا والوسطى والعليا كان هناك عدد ضخم من أهل الديانات الأخرى ، من النصارى واليهود والمجوس والصابئة ، وكانوا يسمون أهل الذمة إشارة إلى أنهم فى ذمة الإسلام وعهده ورعايته وما وضعه من مبادئ التسامح الرائع ، فإذا هم يصانون ويُحْرَسُون ويُحْرَسُ نساؤهم وأسَرهم ، حتى ليصبح لكل أهل ملة منهم كيانهم الخاص فلهم معابدهم ولهم رؤساؤهم الدينيون : للنصارى مثلا الجاثليق والبطرك . ولهم محاكمهم الخاصة التى تفصل بينهم فى خصوماتهم . تسامح لم يَعْرفه دين ولم تَعْرفه أمة قبل الإسلام ، ولا ظلم ولا جور ، بل عدالة مطلقة تعمهم وحماية بدون حدود ، وليس عليهم للدولة إلا ضريبة مالية محدودة هى الجزية التى لم يكن يدفعها إلا القادر على حمل السلاح ، أما المريض بعلة لا بُرْءَ منها وذوو العاهات والأطفال والنساء والشيوخ ورجال الدين فى كل ملة فلا يؤدون شيئًا ، ولم تكن هذه الضريبة أو الجزية تتعدّى ثلاثة دنانير لأصحاب

---

(١) انظر قصة خالد بن يزيد فى مطالع كتاب البخلاء .

الثراء الطائل منهم وديناريين لمتوسطى الثراء وديناراً لعامتهم ممن يتكسبون كسبًا لا يضيرهم معه دفعه ، وكانت قيمة الدينار حينئذ نحو اثنى عشر درهمًا ، وهذا كل ما يدفعونه فى العام المتطاول ، وهو فى حقيقته لم يكن سوى ضريبة دفاع عنهم . ويتراوح ما كان يؤديه أهل الذمة ببغداد فى أوائل القرن الثالث بين مائة وعشرين ألف درهم ومائتى ألف [١] ، مما يدل على أن دافعى الجزية فى تلك الحقب كانوا لا يزيدون على نحو عشرين ألفًا ، فإذا أضفنا إليهم العاجزين عن الكسب من النساء والأطفال والشيوخ وغيرهم ممن ذكرناهم آنفًا تبين أن عدد أهل الذمة حينئذ ببغداد كان لا يقل عن نحو ستين ألفًا . وكانوا جميعًا يشدون إلى أوساطهم زنانير أشبه بأحزمة .

وكان أهل بغداد وغيرا بغداد من المسلمين يعاملونهم معاملة حسنة ، فكانوا يوسعون لهم فى كل عمل معهم ، وكانت العامة تأنس خاصة للمسيحيين منهم ، إذ كانوا يؤثرونهم على المجوس ويرونهم أسلم صدوراً من اليهود ، كما يقول الجاحظ فى رسالته الرد [٢] على النصارى ، وفيها يذكر أن الخلفاء والولاة قربوهم منهم واستخدموهم فى الدواوين وقاموا لهم على كثير من شئونهم وأنهم كانوا ينهضون بحرف جليلة مثل العطارة والصيرفة ، وكان منهم أطباء الخلفاء والوزراء وعلية القوم وأطباء البيمارستانات ، حتى استقر فى أنفس الناس أن الطبيب الحاذق لا يكون إلا مسيحيًا . أما اليهود فكانوا يعملون فى أحقر المهن ، حتى ليقول الجاحظ فى الرسالة آنفة الذكر : « لا تجد اليهودى إلا صباغًا أو دبّاغا أو قصّابًا (جزاراً) أو شعّابًا (مصلح جرار وأحذية) » ؛ ويقول ابن قتيبة إنهم أنتن خلق الله فناء [٣] . وكان النصارى يتخذون أفخر الدواب والثياب والخدم ويتمتعون مثل العلية بلعب الصوالجة ، وحتى تسموا بأسماء المسلمين مثل الحسن والحسين كما يقول الجاحظ .

ويأمر المتوكل لسنة ٢٣٥ ، بأن يلبس أهل الذمة كلهم الطيالس العسلية

---

(١) كتاب الخراج لقدامة (طبع ليدن) ص ٢٥٠ ، وابن خرداذبة ص ١٢٠ .

(٢) انظرها فى ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل .

(٣) أدب الكاتب لابن قتيبة (طبعة ليدن) ص ٦٦ .

ويشدوا فى أوساطهم الزنانير وأن يركبوا السروج برَكب الخشب ويجعلوا على مؤخرها كرتين ومَنْ لبس قلنسوة مثل قلنسوة المسلمين يجعل عليها زِرَّين ، وأمر أيضًا أن يجعلوا رُقْعتين على ثياب مماليكهم يخالف لونهما لون الثوب الموضوعين عليه ، وتوضع إحدى الرقعتين على الصدر والأخرى خلف الظهر ، وكل من الرقعتين بمقدار أربع أصابع ويكون لونها عسليًّا ، وتلبس المرأة منهم إزاراً عسليًّا وأمر بهدم بِيَعِهِم وكنائسهم المحدَثة وألا يُستعان بهم فى الدواوين وأعمال الدولة ، حتى لا تجرى أحكامهم على المسلمين[1] .

ويبدو أنه منذ المتوكل أخذت هذه الأوامر الشديدة تخفَّف عن النصارى حتى لنجده هو نفسه يجعل النفقة فى سنة ٢٤٥ على بناء قصره الجعفرى بيد دُليل بن يعقوب النصرانى كاتب بُغا[2] . وكثر أهل الذمة بعده فى الدواوين ولعل ذلك ما جعل العامة فى سنة ٢٧٢ للهجرة تثور عليهم[3] .

ويعظم أمر أهل الذمة فى أواخر القرن الثالث ، إذ يكثر استخدامهم فى الكتابة وفى أمور المسلمين فيأمر المقتدر لسنة ٢٩٦ بألا يستخدم أحد منهم إلا فى الطب والجهبذة وأن يطالبوا بلبس العسلى وتعليق الرقاع المصبوغة على أظهرهم[4] ، ومع ذلك نرى وزيره ابن الفرات يتخذ منهم أربعة كتّاب كان يدعوهم يوميًّا إلى طعامه مع خمسة آخرين اختصّ بهم جميعًا[5] .

وواضح من هذا كله مايدل على أن أهل الذمة لم يكونوا مضطهدين طوال العصر وأن الأوامر التى كانت تصدر أحيانًا بالتشديد عليهم لم تكن تنفَّذ ، وأنهم كانوا يعملون فى مختلف الأعمال حتى الوظائف الديوانية وأعمال الخراج . وكان كثير منهم — وخاصة من النصارى — يعيشون فى نعيم غدق لما يصير إليهم من الطب والصيرفة والأعمال التجارية المربحة .

---

(١) طبرى ٩/١٧١ وانظر ٩/١٩٦ .
(٢) طبرى ٩/٢٧٢ .
(٣) طبرى ١٠/٩ .
(٤) النجوم الزاهرة ٣/١٦٥ .
(٥) كتاب الوزراء ص٢٤٥ وانظر ص٩٥ .

٢

الحضارة والترف والملاهى

رأينا تفنّن الخلفاء والوزراء فى بناء القصور ،حتى ليشبه بعضها مدنًا صغرى تمتلئ بالأبنية والأفنية والأساطين والقباب والبساتين والجداول والبرك والنافورات ؛ مع التأنق فى أبوابها ونوافذها وشرفاتها وزخرفة حيطانها بالنقوش والصور وتعليق الستائر الحريرية عليها ، ومع ما يموج فيها من البسط والسجاجيد والطنافس والمناضد والتحف المرصعة بالجواهر

وقد افتُتِحَ العصر بالمتوكل وقصوره الباذخة التى كلفت الدولة ملايين الدنانير ، ويكفى لتصور ما كان فى عصره من بذخ وترف شديد أن نروى ما قصَّه الرواة عن حَفْله الذى أقامه بمناسبة إعذار (ختان) ابنه المعتز ، فقد أمر وزيره الفتح بن خاقان أن يلتمس فى خزائن الفرش بساطًا لإيوان قصر البركوار الذى أقام فيه الإعذار ، وأن يكون فى طوله وعرضه ، وكان طوله مائة ذراع وعرضه خمسين ، ووجد طلبته : بساطًا مذهبًا مبطنًا ، يقال إن التجار قوَّموه بعشرة آلاف دينار . وبُسط فى الإيوان ووُضع للمتوكل فى صدره سرير ، مُدَّ بين يديه أربعة آلاف مرفع (كرسى) مذهبة مرصعة بالجواهر وعليها تماثيل العنبر والندّ والكافور . ومدَّت الموائد وتغدَّى المتوكل والناس . وجلس على السرير ، وأحْضِرَ الأمراء والقواد والندماء فأجْلسوا على مراتبهم ، وجىء بأوعية مملوءة دراهم ودنانير نصفين ، صُبَّتْ فيها حتى ارتفعت . ووزَّع الغلمان الشراب ،ودعوا كل من يشرب إلى أن يأخذ ثلاث حفنات أو ما حملتْ يداه من ذلك المال . وكان الناس يجمعونه فى أكمامهم الواسعة ويخرجون إلى غلمانهم فيدفعونه إليهم ويعودون إلى مجالسهم . وكلما خلا وعاء مما فيه أتى الفراشون بما يملؤه من الدنانير والدراهم حتى يعود كما كان . وخلع على سائر

مَنْ حضر ثلاث خلع ، وحُملوا عند انصرافهم من الحفل على الخيل المطهّمة ، وأعتق المتوكل ألف رقبة ، وأمر لكل عتيق بمائة درهم وثلاثة أثواب . وكان فى صحن الدار بين يدى الإيوان أربعمائة جارية بين أيديهن أطباق الفواكه من كل صنف ، وخمسة آلاف باقة نرجس ، وعشرة آلاف باقة بنفسج . ترف لا يماثله ترف ! . ونثر المتوكل على هؤلاء الجوارى وخدم الدار والحاشية عشرين مليون درهم ، ونثرت زوجه قبيحة أم المعتز مليون درهم على المزين ومن كانوا فى جانبه من الغلمان وبعض الجنود وقهارمة الدار والخدم الخاصة من البيضان والسودان . مال ينفق ويبعثر بدون حساب ، وكأنما أمسك به سفهاء ، لا يعرفون حقوقاً لرعية ولا يقدرون مسئولية . وحضر الحفل كثير من الندماء فى مقدمتهم ابن حمدون وابن المنجم ، وكثير من الشعراء فى مقدمتهم الحسين بن الضحاك وعلى ابن الجهم ، وكثير من المغنين فى مقدمتهم عمرو بن بانة وابن المكى وعثعث وسليمان الطبال وصالح الدفاف وزُنام الزامر ، وكثير من المغنيات فى مقدمتهن عَرِيب وبدعة جاريتها وشارية وجواريها . ويُقال إنه أنفق على هذا الإعذار أو الختان ستة وثمانون مليوناً من الدراهم (١) . سفه ما بعده سفه !

وعلى هذا النحو كانت ملايين الدنانير والدراهم تُنفَق بدون حساب وبدون أى رقابة فى حفلات القصر ، وهى حفلات أمدّت القصص فى كتاب ألف ليلة وليلة بكل ما يقع فى الخيال الواهم من بذخ وترف لا ضفاف له ، وبدلا من أن توجّه هذه الملايين إلى مرافق الشعب وحاجاته أو إلى إعداد الجيوش فى حروب الترك والبيزنطيين كانت تبدّد هذا التبديد الأحمق والشعب يكدح ويشقى ويسيل عرقه مدراراً ويتجرع غُصَص البؤس والحرمان ليعبث المتوكل وغير المتوكل بأمواله ، فإذا قصور شماء تُبنَى ويُنفَق فيها الملايين تلو الملايين ، وإذا هى تستحيل إلى مقاصف يدور فيها الكاس والطاس وتُنشَر حمول الذهب والفضة .

ويروَى أن المتوكل شرب يوماً فى القصر السالف ذكره المسمى بالبركوار ، فقال لندمائه ، ولم تكن الأيام أيام ورود ورياحين : أرأيتم إن عملنا احتفالا بالورود

---

(١) الديارات للشابشتى (الطبعة الثانية) ص ١٥٠ وما بعدها .

أو كما نطقه بالفارسية : «شاذكلاه» ، فقالوا له : لا يكون الشاذ كلاه إلا بالورد ، وليست الأيام أيام ورد ، فقال : ادعوا لى عبيد الله بن يحيى – وكان أحد وزرائه – فحضر ، فقال له : اضرب لى دراهم ، فى كل درهم حبتان من الفضة ، فسأله : كم المقدار يا أمير المؤمنين ؟ فأجابه خمسة ملايين درهم ، فأمر عبيد الله بضربها ، فضربت . وأنبأ المتوكل بضربها ، فقال له : اصبغ طائفة منها بالحمرة وطائفة بالصفرة وطائفة بالسواد ، واترك طائفة على حالها . فصنع عبيد الله ما أمره به ، ثم تقدم المتوكل إلى خدمه وحواشيه – وكانوا سبعمائة – فأمرهم أن يعد كل منهم قباء جديداً وقلنسوة بخلاف لون قباء صاحبه وقلنسوته ، ففعلوا . ثم تحين يوماً فيه ريح ، فأمر أن تنصب قبة لها أربعون باباً ، فاصطبح فيها والندماء حوله وعلى الخدم الكسوة الجديدة ، وأمر المتوكل بنثر الدراهم كما ينثر الورد ، طائفة طائفة ، فنثرت تباعاً ، وكانت الريح تحملها لخفتها ، فتتطاير فى الهواء كما يتطاير الورد[1] .

وكل هذا من الفراغ ومن الترف المفرط ، فإذا الخلفاء ينعمون بالحياة إلى حد السفه والهوس . وطبقات من ورائهم قتر عليها فى الرزق ، فهى تعيش فى ضنك وضيق شديد . ولعل هذا هو السبب فى أن الشعب لم يهتم أى اهتمام بما كان يجرى فى القصر من تحكم الأتراك فى الخلفاء ، كأنهم لا يعنونهم فى شىء . وكل يوم يسمعون بجديد من هوسهم وسفههم ، كأن يسمعوا بأن المتوكل حين انتهى من بناء قصره الجعفرى استدعى أصحاب الملاهى ، فقدموا له بعض المساخر والملاعب المضحكة ، ومنحهم مليونين من الدراهم[2] . وبحق يقول المسعودى إن النفقات لم تبلغ فى وقت من الأوقات ما بلغته فى أيام المتوكل[3] . وكان أكثر أبنائه على غراره من مثل المعتز ، وكان يكثر من عقد مجالس الشراب فى قصوره ، وهو أول من ركب من الخلفاء بحلية الذهب[4] . ولم يتوقف هذا البذخ والترف طوال العصر ، ويصور ذلك من بعض الوجوه استقبال المقتدر لرسل ملك الروم سنة ٣٠٥ للهجرة وقد جاءوا يطلبون عقد هدنة ، إذ فرشت قصوره بأجمل الفرش وملئت دار الخلافة

(١) الديارات ص ١٦٠ .

(٢) طبرى ٢١٢/٩ .

(٣) مروج الذهب ٣٩/٤

(٤) مروج الذهب ٩٤/٤ .

ودهاليزها وممراتها وصحونها بالجند والسلاح ، وابتدأ ذلك من باب الشمّاسية إلى دار الخلافة ، وكان عدد الجند مائة وستين ألفًا بالدروع والسلاح ومن تحتهم الخيل بسروج الذهب والفضة ، وكان عَدَدُ الغلمان سبعة آلاف خادم وسبعمائة حاجب بالبِزّة الرائقة والسيوف والمناطق المحلاة . وكان فى دجلة الشذاءات والطيارات والزبازب والشبّارات والزلالات والسُّمَيريّات (سفن شتى) بأفضل زينة وعلى أحسن تعبئة . وسار رسل ملك الروم ومن معهم من المواكب إلى أن وصلوا إلى دار الخلافة ، ودخلوا قصر الجوسق بين بستانين رائعين ، ورأوا بركة عجيبة يمدُّها جدول وبها أربع طيارات مذهبة مزينة بالدبيقى المطرز ، ثم أُدخلوا قصر الشجرة ، وهى شجرة من الفضة كانت قائمة وسط بركة مدورة ، ولها ثمانية عشر غصنًا عليها الطيور والعصافير المذهبة والمفضضة تصفر ، والشجرة تتمايل وورقها يتحرك على نحو ما تُحدث الرياح للأشجار الطبيعية ، ثم أُدْخلوا إلى قصر الفردوس وبه من الفرش ما لا يقوَّم ، وفى الدهاليز عشرة آلاف درع مذهبة معلقة[1]، مما راع رسل ملك الروم روعة شديدة .

ويقول هلال بن المحسن الصابى جرت العادة أن يكون جلوس الخليفة على كرسى مرتفع فى عرش أرمنى من الحرير أو من الخز وأن يلبس قباء أسود من الإبريسم (الحرير) وعلى رأسه معممة سوداء ، ويتقلّد سيف الرسول عليه السلام ويلبس خُفًّا أحمر ويضع بين يديه مصحف عثمان وعلى كتفيه بُرْدَة النبى صلى الله عليه وسلم ويمسك بقضيبه ، ويقف الغلمان والخدم من خلف السرير وحواليه متقلدين بالسيوف ، وفى أيديهم الطَّبَرْزينات والدَّبابيس (من أسلحة الحروب) . وكان يقوم من وراء السرير وجانبيه خدم صقالبة يذبّون عن الخليفة بالمذابّ المقمّعة بالذهب والفضة ، وتُمَدّ أمامه ستارة ديباج إذا دخل الناس رُفعت ، وإذا أريد صَرْفهم مُدّت . ورُتب فى الدار قريبًا من المجلس خدم بأيديهم قِسِيُّ البندق يرمون بها الغربان والطيور لئلا ينعب ناعب أو يصوّت مصوّت . ترف ليس فوقه ترف ، حتى أذن الخليفة يحرسونها من أصوات الغربان والطيور! . وكان زىّ الأمراء من أهل البيت العباسى الأقبية السود ، ويلبس القضاة الطيالسة

---

(١) رسوم دار الخلافة للصابى ص ١١ وما بعدها والنجوم الزاهرة ٣/١٩٢ .

والقلنسوات الضخمة[١]. ويلبس الوزراء الأقبية السود وينتطقون بالسيوف وقد يلبسون دراعة وقميصاً ومبطَّنة وخفاً.[٢] وكان السواد هو اللباس الرسمى العام، وكانوا يلبسون فى أرجلهم الجوارب والأحذية السود المشدودة بالزنانير. وفى يوم الموكب كان يحضر حاجب الحجاب بأكمل لباسه من القَبَاء الأسود والعمامة السوداء والسيف والمنطقة، وأمامه الحجاب ونُوّابهم، ويجلس فى الدهليز من وراء الستر، ثم يحضر الوزير وقائد الجيش، ويتكامل الناس فيراسل حاجب الحجاب الخليفة، فإذا أذن الإذنَ العام دخل وحده حتى يقف فى الصحن ويقبل الأرض، ثم يؤذن له بتقديم الناس، فيخرج ويدعو ولىّ العهد إن وُجد، وكذلك أولاد الخليفة، إن كان له أولاد، ثم يدخل الوزير، ويمشى الحجاب بين يديه إلى مقربة من العرش، فإذا قرب تأخروا عنه، وتقدم الوزير بعد تقبيل الأرض إلى أن يدنو من الخليفة فإن مدّ يده إليه أخذها وقبّلها وتراجع حتى يقف فى يمين العرش على بعد خمسة أذرع منه، ويدخل بعده قائد الجيش أو أميره فيقبل الأرض ويقف على يسار العرش، ثم يدخل أصحاب الدواوين والكتّاب، ثم القوّاد ونوّاب الحاجب على مراتبهم، ويقفون يميناً وشمالا على رسومهم، ثم ينادَى على بنى هاشم والقضاة ومن يلبسون القلانس ويسلمون ويقفون منفردين، ثم يقع الإذن العام فيدخل الجند ويقفون صفّين. وكل ذلك تعقيد أدت إليه الحضارة والترف وأن الناس لا يشتركون فى الحكم ولا يشاطرون فيه، فتحول إلى رسوم وشكليات وآداب لا يعرفها العرب ولا يعرفها الإسلام. وكان للوزراء بالمثل مواكبهم، وكذلك كان للقواد، ويروى أن نازوك أحد قواد المقتدر كان يمشى فى موكبه بين يديه أكثر من خمسمائة فراش بالشموع الموكبية سوى حملة المشاعل[٣].

وكان يرافق هذه الأبّهة أبّهةٌ فى المسكن والملبس والمطعم، فكانت الستور الجميلة تعلّق دائماً على حيطان المسكن، وكانت تُفْرَش أرض غرفه وممرّاته وصحونه بالبسط والسجاجيد، وتمتد فوقها المقاعد والوسائد والنمارق، وكانت القصور تكتظ بذلك اكتظاظاً شديداً، ويصوّر ذلك من بعض الوجوه أن المتوكل حين غضب على عمر بن فرج الرُّخَجِىّ أحد كبار موظفى الدولة، وصادر أمواله،

(١) رسوم دار الخلافة ص ٩٠.
(٢) كتاب الوزراء للصابى ص ٣٢٥.
(٣) رسوم دار الخلافة ص ١٠.

حملت فُرُش وأمتعة من داره على خمسين بعيراً(١)، فما بالنا بما كان فى قصور الوزراء، فضلا عن الخلفاء، من فرش فخمة. وعلى نحو ما كانوا يهتمون بالفرش كانوا يهتمون بالثياب، حتى كانت صناعتها أهم الصناعات وأرقاها، وكان الصناع يتفننون فى صنعها من الخزّ والديباج والحرير. ويَرْوِى صاحب الديارات أن المتوكل جلس يوماً فى أحد قصوره على عرش من الذهب وعليه ثيابُ وَشْى مُثْقلة، وأمر ألا يدخل عليه أحد إلا فى ثياب وشْى مثله(٢)، وكان الخدم يقفون بين يديه وعليهم ثياب حُمراء مورَّدة(٣). ويقال إن المستعين هو الذى أحدث لبس الأكمام الواسعة فجعل عرضها ثلاثة أشبار، وصغَّر القلانس وكانت طويلة كأقباع القضاة(٤). وكان المعتضد يلبس الثياب الدبيقية الرفيعة التى كانت تُصْنع بمصر والثياب الحريرية التى كانت تصنع بمدينة تُسْتَر وغيرها من المدن الفارسية(٥). ويُرْوَى أن إسحق بن إبراهيم المصعبى حاكم بغداد لعهد المتوكل أهدى إلى عمرو بن بانة مغنى العصر عشرة أثواب خزّ أقلها قيمة بمائة دينار(٦)، وكان خليفته على بغداد محمد بن عبد الله بن طاهر يتأنّق فى ثيابه، وقيل إنه كان بينها ثوبان من الوَشْى قيمتهما ألف وخمسمائة دينار(٧)، ومرَّ بنا أن الراسبى والى إيران كان له مصنع خاص تنسج فيه ثيابه وثياب حواشيه وأصحابه. وكان الشعراء مثلهم مثل المغنين يلبسون الخز والوَشْى والثياب الحريرية(٨). وكانوا يلبسون فى الشتاء الفراء والثياب الصوفية، واشتهر ثوب باسم المِمْطر كان يُصْنَعُ من القماش المشمع للوقاية من المطر، ونرى البحترى يسأل إبراهيم بن الحسن بن سهل ثوباً منه(٩). ولبسوا الجوارب الصوفية والقطنية والحريرية والأحذية الحمراء(١٠). ويبدو أن الرجال كانوا يتنافسون فى اقتناء الحجارة الكريمة، إذ نرى نفراً منهم حين تصادرُ أمواله تصادَرُ بينها جواهر ثمينة تبلغ قيمتها ألوف الدنانير(١١). وكانت خزائن الخلفاء تكتظ بالجواهر من كل صنف،

---

(١) طبرى ٩/١٦١.
(٢) الديارات ص ١٦١.
(٣) الديارات ص ٥٧.
(٤) مروج الذهب ٤/٩٤.
(٥) مروج الذهب ٤/١٦٨.
(٦) الديارات ص ٤٤.
(٧) الديارات ص ٢٠٣.
(٨) البيان والتبيين ٣/٩٥.
(٩) ديوان البحترى (طبع دار المعارف) ٢/ ٨٩٢.
(١٠) تاريخ بغداد ١١/١٦٦ والأغانى ٦/٨٥.
(١١) طبرى ٩/١٦١.

ويُذْكَرُ أنه كان عند المستعين فَصٌّ ياقوت أحمر اشتراه الرشيد بأربعين ألف دينار[١]، ويُرْوَى أن المقتدر طلب الصناديق وأوعيتها المحفوظة بالخزائن، فاختار منها مائة حبة، ونظمها سُبْحَةً يسبح بها وعُرِضت على تجار الجواهر فقوَّموا كل حبة منها بمائة ألف دينار أو تزيد[٢].

وكان النساء حرائر وجوارى يبالغن فى أناقتهن وزينتهن، فكن يَلْبَسْن ثياب السندس والإستبرق والوَشْى النفيس من كل لون وكن يتحلين بالجواهر من كل صنف: من الذهب والفضة والزمرد والياقوت واللؤلؤ، وكنَّ يتخذن منها تيجاناً وعقوداً وأقراطاً وخلاخيل، وكنَّ يَضَعْنَها بصور مختلفة على عصائبهن ومراوحهن.

ويُرْوَى أنه كان لدى قبيحة زوجة المتوكل وأم المعتز ثلاثة أسفاط: سَفَطٌ مملوء زمرداً، وسَفَطٌ مملوء ياقوتاً وسفط مملوء دُرًّا كبيراً، وقُوِّمت الأسفاط فبلغت قيمتها مليونين من الدنانير. وكان النساء يتخذن أمشاطاً من الصدف والصندل[٣].

وكن يتفنن فى أوضاع شعورهن على رءوسهن وجباههن، وقد يلوينها على أصداغهن فى هيئة حرف النون أو على هيئة العقرب، وفى ذلك يقول ابن المعتز[٤]:

لَوَى صُدْغَهُ كالنون من تحت طُرَّةٍ ... مُمَسَّكَةٍ تزهى بعاجِ جَبِينِ

ويقول أيضاً[٥]:

رِيمٌ يَتِيهُ بحسن صورتِهِ ... عَبَثَ الفُتُورُ بلحظ مُقْلَتِهِ

وكأن عَقْرَبَ صُدْغِهِ وقفتْ ... لما دنتْ من نارِ وَجْنَتِهِ

وكن يتعطرن بطيب المسك كما أشار إلى ذلك ابن المعتز فى البيت الأول وبطيب الغالية والزعفران والعنبر. ويقال إن عَرِيب المغنية المتوفاة سنة ٢٧٧ عن سن عالية كانت تغسل شعرها من أسبوع إلى أسبوع وتغلفه فى كل غَسْلة بستين مثقالا من المسك والعنبر[٦]. ويقول الجاحظ إن المرأة من الطبقة الوسطى حين كانت تهدى ابنتها للزواج كانت تحليها بالذهب والفضة وتكسوها الثياب الحريرية وتع[...]رها

(١) مروج الذهب ٤/ ٨٣.
(٢) طبرى ٩/ ٣٩٥، ٤٠٤، ص ٤٤٢.
(٣) نساء الخلفاء لابن الساعى (طبع دار المعارف) ص ٦٢.
(٤) ديوان ابن المعتز (نشر دار صادر ببيروت) ص ٥١٠.
(٥) الديوان ص ١١٠.
(٦) أغانى (طبعة الساسى) ١٨/ ٨٧.

بالطيب العَبِق[١]. وازدهرت حينئذ بفارس صناعة الروائح العطرية من الزهور والورود والرياحين المتنوعة .

وتفننوا فى المطاعم إلى غير حد ، تدل على ذلك المصنفات الكثيرة التى ألفت حينئذ فى فن الطبيخ للحارث بن بُسْخنَّر (من المغنين) ولإبراهيم بن العباس الصولى ولعلى بن يحيى المنجم ولجَحْظة البرمكى وغيرهم على نحو ما يشير إلى ذلك ابن النديم فى كتابه الفهرست[٢]، وكان الخلفاء يأكلون فى آنية الذهب والفضة ، ويذكر أن المكتفى كانت تقدَّم على مائدته عشرة ألوان فى كل يوم سوى صنوف الحلواء[٣]، وكان ما يقدم قبل الخليفة القاهر على مائدة الخلفاء من صنوف الطعام والحلواء يقدّر بثلاثين ديناراً[٤]، ويقال إن ثمن المسك الذى كان يُنْفَقُ يومياً فى مطبخه عشرة دنانير[٥] فما بالنا بما كان ينفق على الطعام والحلواء والفاكهة . . . وبالمثل كان الوزراء يسرفون فى الإنفاق على طعامهم وموائدهم ، ومرَّ بنا أنه كان لحامد بن العباس وزير المقتدر أربعون مائدة يختلف إليها فى كل غداء أفواج من الناس . ويقول الصابى فى كتابه الوزراء إنه كان لابن الفرات مطبخان : مطبخ للخاصة ، ومطبخ للعامة ، وكان يقدم إلى الأخير يومياً تسعون رأساً من الغنم وثلاثون جَدْياً غير المئات من الدجاج ، وكان الخبَّازون وأصحاب الحلواء يعملون ليل نهار . ويصف لنا الصابى مائدته الخاصة به وبأصحابه المقربين ، فيقول : إنه كان يدعو إلى طعامه فى كل يوم تسعة من أصفيائه الكتَّاب ، وكان بينهم أربعة نصارى : « فكانوا يقعدون من جانبيه وبين يديه ، ويقدَّم إلى كل واحد منهم طبق فيه أصناف الفاكهة الموجودة فى الوقت من خير شىء ، ثم يُجْعَلُ فى الوسط طبق كبير يشتمل على جميع الأصناف ، وكل طبق فيه سِكّين يقطع بها صاحبها ما يحتاج إلى قطعه من سفرجل وخوخ وكمثرى ، ومعه طستُ زجاج يُرْمَى فيه بالثفْل . فإذا بلغوا من ذلك حاجتهم واستوفوا كفايتهم شيلت الأطباق وقُدّمت الطسوت والأباريق ، فغسلوا أيديهم ، وأحضرت المائدة مغشَّاة بدبيقى فوق مكبَّة خيازر ، ومن تحتها سفرة (مفرش) أدم فاضلة عنها ، وحواليها مناديل . . . فإذا

---

(١) البخلاء (طبعة دار الكاتب المصرى) ص ٢٥ .
(٢) الفهرست لابن النديم (الطبعة الثانية للمكتبة التجارية بمصر) ص ٤٥٤ .
(٣) مروج الذهب ٤/١٩١ .
(٤) عريب ص ١٨٣ .
(٥) كتاب الوزراء ص ٣٥٢ .

وُضعت رُفعت المكبَّة (غطاء الآنية) والأغشية ، وأخذ القوم فى الأكل ، وابن الفرات يحدّثهم ويؤانسهم ويباسطهم . فلا يزال على ذلك ، والألوان تُوضَعُ وتُرْفَعُ أكثر من ساعتين . ثم ينهضون إلى مجلس فى جانب المجلس الذى كانوا فيه ويغسلون أيديهم ،والفرّاشون قيام يصبون الماء عليهم ، والخدم وقوف على أيديهم المناديل الدبيقيّة ورطليّات ماء الورد لمسح أيديهم وصَبّه على وجوههم»[1] وكأن العباسيين لم يتركوا للمدنية الحديثة شيئًا .

وكان فى بيوت الكبراء شرابى يعنى بالشراب وآلته وبالفاكهة والروائح[2]، وكان بجانبه الشوّاء والطبّاخ والخبّاز والخبّاص وهو الذى يصنع الحلوى ، وفى كتاب البخلاء للجاحظ وغيره من كتب العصر أسماء أطعمة كثيرة مثل السِّكباج ، وهو لحم يُطْبَخُ بخلّ ويضاف إليه شىء من الزعفران لتطيب رائحته ، والمَضيرة وهى لحم ممزوج ببعض التوابل ، والشبارقات وهى شرائح مشوية من اللحم ، والطباهج وهو طعام من لحم وبيض وبصل ، والهريسة وهى لحم وماء وسميذ إلى غير ذلك من أطعمة كثيرة . ثم الحلوى من الفطائر والرقاق ، ومنها اللوزينج ، وكان يتخذ من اللوز والدقيق والفستق ويُرَشّ بماء الورد ، ومنها الفالوذج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن ، والخُشْكنان وهو كعك يُحْشَى بالجوز والسكر . ثم الأشربة ومنها الجُلاّب وهو شراب ممزوج بماء الورد . وكانت تقدّم مع الطعام المشهيات ويسمونها النُّقْل ، وكانت تتألف — كما فى عصرنا — من أشياء حِرِّيفة . وكتبوا كثيراً عن آداب الطعام نجد ذلك منثوراً فى كتاب البخلاء للجاحظ وعيون الأخبار لابن قتيبة وأدب النديم لكشاجم وكتاب الموشى للوشاء ، وفيه فصل طريف عن زى الظرفاء فى الطعام .

وكانوا يفصلون وقت الشراب عن وقت الطعام ، وفيه يكون السمر ، ودائمًا نجد الندماء ، وكان لكل خليفة ندماؤه من العلماء والمنجمين والأطباء ومن يوردون

---

(١) كتاب الوزراء ص ٢٤٠ .

(٢) كتاب الفرج بعد الشدة للتنوخى ١١/٢ .

النوادر والفكاهات ومَنْ يعرفون كيف يرضونه فى ساعات صَفْوه وساعات سخطه ، وكانت تغمرهم الصلات السنية على نحو ما يُرْوَى عن على بن يحيى المنجم وما قيل من أنه وصله من المتوكل وحده ثلثمائة ألف دينار ، وكان نديمًا ممتازاً ، فهو شاعر وطبيب وأديب ومضحك وصاحب نوادر . وتخصصت أسرة حمدون بهذه الصناعة ، وهى من سلالة حمدويه صاحب الزنادقة فى عصر المهدى ، فكان إبراهيم بن حمدون ينادم المعتصم ثم الواثق ولحق عصر المتوكل ، وكان ينادم المعتمد منهم أبو محمد بن حمدون ، أما أبو عبد الله أحمد بن حمدون فكان ينادم المتوكل وغيره من الخلفاء ، ويقال إن المتوكل وصله فى مدة خلافته بثلثمائة وستين ألف دينار وإن المستعين وصله بأكثر مما وصله به المتوكل[1] . ونجد فى بلاط المتوكل كثيرين من الندماء ، ومنهم أبو العبر وأبو العنبس الصيمرى الذى قلد أمامه البحترى فى إنشاده الشعر تقليداً مضحكًا . وكان المعتمد كثير الندماء مثل المتوكل ، وفى مروج الذهب حديث دقيق لبعض ندمائه عن آلات الطرب والغناء والرقص ، ويقول المسعودى بعقب ذلك : « وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس فى أنواع من الأدب ، منها مدح النديم وذكر فضائله »[2] ، ولا بد أن يكون كشاجم استفاد فى كتابه « أدب النديم » من ذلك فوائد كثيرة . وكان المعتضد يفرد حجرة للندماء ، ليستدعيهم منها ، وكان لكل منهم نوبته أو دوره[3] . واشتهر الراضى بأنه كان يوسع فى مجالسه للندماء « ولم يكن ينصرف عنه أحد من ندمائه فى أى يوم إلا بصلة أو خلعة أو طيب ، منهم محمد بن يحيى الصولى وواحد من بنى حمدون »[4] . وكان للوزراء ندماؤهم ، بل كان أيضًا لعلية القوم وكبار الموظفين فى الدولة ، ويكفى أن نعرف مثلا أن أحمد بن المدبر كان له سبعة ندماء لا يأنس بغيرهم ولا ينبسط إلى سواهم[5] ، ومن المؤكد أن وظيفة هؤلاء الندماء هى التى دفعت الجاحظ إلى كتابة مصنفه البخلاء للتسلية والتندير ، وكثر من حوله

---

(١) معجم الأدباء (طبع القاهرة) ٢/٢١٧ .
(٢) مروج الذهب ٤/١٣٨ .
(٣) تاريخ بغداد ٧/٣٨٠ .
(٤) مروج الذهب ٤/٢٤٤ .
(٥) مروج الذهب ٤/١٦٣ .

التأليف فى المغفلين وأصحاب النوادر والفكاهات [١].

وكانوا يشغفون — وفى مقدمتهم الخلفاء — بضروب كثيرة من الملاهى ، ويقال إن مجالس المتوكل كانت تمتلئ باللعب والهزل [٢] ، وممن كان يعجب بهم أصحاب السماجة أو كما نقول الآن التمثيل الهزلى ، الذين كانوا يقلدون الناس فى حركاتهم وأصواتهم [٣] . وكان هو وخلفاؤه كثيراً ما يتفرجون على نطاح الكباش والديكة [٤] وتواثب السباع والفيلة . ويحكى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر أن المعتز استدعاه ، حتى إذا كان بمجلسه أسمعه غناء شارية وزمر زنام ، وأراه آلة عملها أحمد بن موسى الخوارزمى من نحاس يرسل فيها الماء فيسمع لها زمر السرناى (آلة من آلات الطرب) ، ثم أدخله إلى نافذة رأى منها الفيل والسبع كيف يتواثبان [٥] . ومن أهم ملاهيهم لعبة الشطرنج ، وكان من يحسنها تفتح له أبواب الخلفاء والوزراء والكبراء مثل أبى القاسم التوزى الشطرنجى ، ومثل محمد بن يحيى الصولى ، ويقال إن المكتفى استقدمه حين علم بإحسانه لعبة الشطرنج ، وجعله يلعب بين يديه مع لاعب آخر كان مشهوراً بلعبه هو الماوردى ، ولكن الصولى قهره وغلبه [٦] . ويحدثنا المسعودى بعقب ذكره ذلك عن الشطرنج وكيف أنه كان يلعب على رقعة أدم مربعة حمراء ، ويعرض لآلاته وأنواعها واختلاف هيئاتها ، فيذكر بجانب الرقعة المربعة السالفة رقعة مستطيلة ورقعة مدورة ورقعة نجومية وتسمى الفلكية . ويقول المسعودى إنه استحدثت فى زمانه رقعة للشطرنج تسمى الجوارحية ، سموا كل بيت من أبياتها باسم جارحة من جوارح الإنسان ، ويقول إن للاعبيها وهواتها فنوناً من الهزل والنوادر البديعة . وكانوا يقامرون ويراهنون فى لعبة الشطرنج ، وكذلك فى لعبة النرد (الطاولة) ، وكانوا يلعبونها عادة على رقعة

---

(١) الفهرست ص ٤٤٩.

(٢) مروج الذهب ٤/٤.

(٣) الديارات ص ٣٩.

(٤) مروج الذهب ٤/١٠٣.

(٥) الديارات ص ١١٠ ومعروف أنه كان بدار الخلافة منذ المعتصم حظيرة للحيوان تسمى حير الحيوان . انظر الأغانى (طبعة الساسى) ١٠/١٣٠.

(٦) مروج الذهب ٤/٢٣٢.

بها أربعة وعشرون منزلا بثلاثين حجراً وفصّين يجرى بهما اللعب كما هو معروف فى عصرنا . وكان إبراهيم بن المدبر وزير المعتمد مشغوفًا به وكان ماهراً فيه ، فكان يطلب بلعبه القمار وكسب الرهان ، ويروى صاحب الديارات أنه ربح من شخص ذات يوم عشرين ديناراً[١] .

واعل ملهى لم يشغل الناس كما شغلهم الغناء ، وسنعرض لذلك فى موضع آخر ، وكثيراً ما كانوا يتجمعون فى تلك الحقب للفرجة على سباق الخيل ، حتى كانت أيامه أشبه بأيام الأعياد . وكذلك كان اللعب بالصوالجة على الخيل ، حيث تضرب كرة ويتقاذفها الخيّالة والفرسان ، وكانت فى دور الخلفاء ميادين خاصة لتلك اللعبة[٢] ، وكان يلعبها الخلفاء والوزراء والقواد وحواشيهم ، ويُرْوَى أن عبيد الله بن يحيى ابن خاقان وزير المعتمد دخل ميدانًا فى داره يوم جمعة ليضرب الصوالجة مع بعض غلمانه ، فركب فرسه ، وثقل ، فصدمه غلامه رشيق ، فسقط عن فرسه ميتًا[٣] . ويصور ابن قتيبة هذه اللعبة والتفوق فيها ، فيقول إن الضارب يضرب الكرة بالصولجان خِلْسَةً من تحت مِخْزَم الدابّة تلقاء لبّتها ، وعليه أن يحسن كفّ الدابّة فى شدة جريانها متوقيًا من الصَّرْعة والصَّدْمة المفاجئة .

وكانوا يخرجون للصيد والقَنْص أفواجًا ، واشتهر غير خليفة بالخروج له ومعه الكلاب والصقور والفهود ، وكان من أشد الخلفاء شغفًا به المعتضد « وكان كالمعتصم فى أكثر أموره ومآربه وأشبه به من سائر بيته وبنيه من الخلفاء فى محبته لمباشرة الحرب والصيد وما أشبههما ، ولم يكن ينفكّ من حرب إلا إلى صيد ولا من صيد إلا إلى حرب ، وكان يخرج لصيد الأسْد ، فيخيمّ عليها حتى لا يبقى منها باقية »[٤] وكان ابنه المكتفى مشغوفًا مثله بالصيد «وكان أكثر ما يُدْمنه الصيد بالفهد والعقاب ، وهما سَبُعا الضوارى والجوارح ، ويباشر ذلك بنفسه ويمتهنها فيه لشدة الشغف به

---

(١) كتاب الديارات ص ١١ .
(٢) كتاب الوزراء ص ١٣٨ .
(٣) النجوم الزاهرة ٣٨/٣ .
(٤) المصايدوالمطارد لكشاجم (طبع بغداد) ص ٥ .

والارتياح إليه »[١]. ومنذ أبى نواس والشعراء يكثرون من النظم فيه بجميع صوره ، ويعرض كشاجم آلاته عرضًا مفصلا فى كتابه المصايد والمطارد ، كما يعرض روائع ما قيل فيه من أراجيز وأشعار كانوا يسمونها الطَّرديات . ومن طريف ملاهيهم المهارشة بين القردة والفيلة[٢].

وكانت العامة تجد تسليتها المحبَّبة عند قُصَّاص كانوا منتشرين فى طرقات بغداد وكانوا يقصون عليها نوادر الأخبار وغرائبها ، ويبدو أنهم كثروا كثرة مفرطة حتى لنرى المعتمد يأمر فى سنة ٢٧٩ بالنداء فى بغداد ألا يقعد على الطريق ولا فى المسجد الجامع قاصٌّ ولا صاحب نجوم ولا زاجر[٣]. وكان اللعب بخيال الظل معروفًا حينئذ ، وكان يعتمد على الهزل والسخرية والإضحاك[٤]. وكان هناك كثير من المضحكين الذين يتفننون فى طرق الهزل ، وكان كثير منهم يخلط هزله بحكاية لهجات النازلين ببغداد من الأعراب والخراسانيين والزنوج والفرس والهنود والروم أو يحاكون العميان ، وكأنما يجمع الحاكى سمات من يحكيه جميعًا ، وقد يحاكون بعض الدواب وخاصة الحمير[٥]. ومن أشهر هؤلاء الحكَّائين المضحكين لعصر المعتضد ابن المغازلى ، وكان يتكلم على الطريق ويقص على الناس أخباراً ونوادر ومضاحك ، وكان فى نهاية الحذق لا يستطيع من يراه إلا أن يضحك ، وكان لا يدع حكايته لأعرابى أو مكى أو نَجْدِى أو تركى أو نبطى أو زنجى أو سِنْدى إلا حكاها ، وكان يخلط ذلك بنوادر تضحك الثكلى ، وسمع به المعتضد فأحضره ، فما زال يذكر له نوادر وهو متماسك ، حتى أخرجه عن طوره ووقاره إلى الضحك ، فضرب بيده وفحص الأرض بقدمه ، واستلقى من كثرة الضحك وغلبته عليه[٦].

---

(١) المصايد والمطارد ص ٧ .
(٢) الحيوان ٧/ ٦٢ .
(٣) طبرى ١٠/٨، ٤٥ والنجوم الزاهرة ٣/ ٨٠ .
(٤) الديارات ص ١٨٧ وما بعدها .
(٥) البيان والتبيين ١/ ٦٩ .
(٦) مروج الذهب ٤/ ١٦٣ .

٣

الرقيق والجوارى والغناء

كان الرقيق منتشراً فى كل مكان ، فى القصور وفى الأكواخ وفى الصناعات وفى الزراعة ، وكان كثيراً كثرة مفرطة ، فمنه السندى ومنه الإفريقى الزنجى والحبشى والسودانى ومنه التركى والصقلبى ، ومنه الصينى والخراسانى والأرمنى والبربرى ، وكأنما كانت تجمتع فيه كل الأجناس . ومع أن الإسلام قصر الرق على من يؤخذ فى الحرب أسيراً كافراً ، فقد مضى المسلمون — محاكين شعوب العالم القديم — يفسحون للتجارة فيه وجلبه من البلاد الأجنبية ، وكأنهم لم يستطيعوا أن يبطلوا هذه العادة عند الأمم المغلوبة كما كان منتظراً ، بل لقد شاركوهم فيها . ولم تلبث تجارة الرقيق فى ديار الإسلام أن أصبحت ذات شأن عظيم ، حتى ليُبْنَى لها فى كل مدينة كبيرة سوق خاصة يقوم على مراقبتها موظف يسمى قيم الرقيق . ويذكر اليعقوبى أن سوق سامرّاء فى القرن الثالث الهجرى كانت مربعة ، وبها طرق متشعبة ، وفيها الخمر والغرف والحوانيت[1] .

ومعروف أن الإسلام عمل على تحرير الرقيق بوسائل شتى ، إذ جعله فداء لأعظم الجنايات مثل القتل خطأ وأخفها مثل الحنث فى اليمين ، وأباح للعبد حق التملك وأن يكاتب صاحبه على جزء من المال يدخره من العمل ، حتى إذا وفّاه رُدّت إليه حريته . واستطاع كثير من الأرقاء المحررين أن يصلوا إلى أعظم المناصب فى الدولة ، وكان من هؤلاء الأرقاء من يتمتعون بجاه عظيم مثل قواد الترك طوال العصر ، غير أن جمهوراً كبيراً منهم كان يعامل معاملة سيئة ، وخاصة الزنوج الذين كانوا يقومون بأعمال الحرث والزراعة فى البصرة ، مما جعلهم يثورون لعصر المعتمد — كما مرّ بنا — ثورة عارمة . ولا ريب فى أن هذه المعاملة السيئة تخالف روح الإسلام مخالفة صريحة ، لا من حيث استرقاق الناس بالشراء لا بالحرب فقط ، بل أيضاً من حيث أخذهم بالعنف والعسف والظلم ، فقد دعا القرآن

---

(١) جغرافية اليعقوبى ص ٢٥٩ .

والحديث جميعًا إلى الإحسان للأرقاء والبِرّ بهم والمعاملة الكريمة على نحو ما يلقانا فى آية سورة النساء: (وبالوالدين إحسانًا وبذى القربى واليتامى . . . وما ملكتْ أيمانكم إن الله لا يحب مَنْ كان مختالا فخوراً) ، وفى الحديث النبوى : « شر الناس مَنْ أكل وحده ومنع رِفْدَه (عطاءه) وضرب عبده » ، وفيه أيضًا : « العبيد إخوانكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسْه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » ، وكانت الجارية بمجرد أن يستولدها سيدها تصبح أم ولده ، وليس له حق بيعها ، وابنها حر مثل أبيه ، وبمجرد موت سيدها تصبح حرة . وفى مواضع كثيرة من القرآن والحديث نجد الدعوة قوية إلى تحرير العبيد ، ولذلك كان كثيراً ما يوصى الرسول من ملكوهم بعتقهم بعد موتهم ، ويُرْوَى أن المعتصم أوصى بعد موته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه ، ومثله كان يصنع الوزراء والكبراء من الأمة .

على كل حال كان الأرقاء كثيرين كثرة مفرطة ، وكان أهم ما يقومون به فى المدن الخدمة ، ويقول المسعودى إن الخدم كانوا عادة من السودان أو الصقالبة أو الروم أو الصين[1] . ويبدو أن جمهورهم كانوا من الخصيان ، ومع أن الإسلام حرَّم الخصاء تحريمًا باتًا نجد الخصيان منتشرين فى العالم الإسلامى انتشاراً واسعًا . وكانوا يُخْصَوْن خارج حدود الدولة الإسلامية : فى بيزنطة وأواسط آسيا ، ثم يُجْلَبُون ويباعون فى أسواق الرقيق ببغداد وغير بغداد ، ويتردَّد ذكرهم كثيراً منذ أواخر القرن الثانى الهجرى . « وكانت انتشارهم باعثًا على أن تلبس بعض الجوارى المسمَّيْن بالغُلاميات ملابسهم ، وترتَبط بذلك حادثة مشهورة فإن زبيدة أم الأمين حين رأته يستكثر من الخصيان اتخذت الجوارى المقدودات الحسان الوجوه ، وعمَّمت رءوسهن ، وجعلت لهن الطرَر والأصداغ والأقفية (صور من تجميل أوضاع الشعر على الرأس تشبهًا بالفتيان) وألبستهنَّ الأقبية والقراطق والمناطق (ملابس الفتيان) فاست قدودهن وبرزت أردافهن ، وبعثت بهن إلى ابنها الأمين ، فاختلفن بين يديه ، فاستحسنهن ، واجتذبن قلبه إليهن وأبرزهن للناس»[2] فقلَّده كثير من أهل بغداد ، وظل ذلك من بعده حتى عصر الخليفة القاهر المتوفى

---

(١) مروج الذهب ٤/١٥٨ .

(٢) مروج الذهب ٤/٢٢٦ .

سنة ٣٢٢ إذ يروى بعض الإخباريين أنه رأى فى قصره جوارى يلبسن القراطق والأقبية والطُرَر ومناطق الذهب والفضة[١].

وكثرة الخصيان هى التى هَيَّأت لظهور هؤلاء الغلاميات ، ويكفى أن نذكر ما قاله المؤرخون من أنه كان فى قصر المقتدر أحد عشر ألف غلام خصىّ[٢]. ومنذ أواسط القرن الثالث أخذ الناس — احترامًا لمن صارت إليهم مقاليد الأمور منهم ، وخاصة من الترك — يسمون الخصىّ الخادم والأستاذ[٣]. ولم يكونوا يستطيعون التعرض للخصيان البيض خوفًا من الترك وبطشهم ، أما السود فكانت العامة تكثر من الصياح بهم : يا عقيق[٤]. ويروى المسعودى أن الخدم السود جأروا بالشكوى إلى المعتضد لما يلحقهم فى الأزقة والشوارع والدروب وسائر الطرق من الصغير والكبير من العوام إذ كانوا جميعًا يصيحون بهم : « يا عقيق صُبّ ماء واطرح دقيق يا غاق (صوت الغراب) يا طويل الساق»[٥]. وكان المضحكون الهزليون فى الطرق كثيراً ما يحاكون الخدم المختلفين وأصواتهم[٦].

وكانت الإماء والجوارى فى الدور والقصور أكثر من الخصيان وأرقاء الرجال ، إذ أباح الإسلام للمسلم أن يتملك ما شاء من الجوارى والإماء ، وكثير من الرجال كانوا يفضلونهن على الحرائر ، لأنهن كن من أجناس وأشكال مختلفة ، ولم يكن بينهن وبين الرجال حوائل الحجاب مثل الحرائر اللائى يقترنون بهن وهم لا يعرفون من أمرهن شيئًا ، بخلاف الجارية فإنها كانت معرَّضة لهم فى دور النخّاسين ، فكانوا يختارونها بحسب مشيئتهم وموقعها فى أنفسهم ، بخلاف الحرائر فقد كان الحجاب يحول بينهم وبين التعرف عليهن ، وكانوا يُضْطَرّون لاتخاذ دلاّلات يصفونهن لهم ، وقلما يتطابق الوصف مع الحقيقة . وكان بين الجوارى المعروضات للبيع دائمًا كثير من الفاتنات الفارسيات والخراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات ، فكنّ يستأثرن بقلوب الرجال . ومن أجل ذلك لم يكونوا يعددون زوجاتهم ، فقد كفاهم اتخاذ الجوارى والإماء هذا التعدد ، وأكبّوا عليه إكبابًا .

---

(١) مروج الذهب ٤/٢٢٧ .
(٢) النجوم الزاهرة ٣/٢٣٤ .
(٣) مروج الذهب ٤/١٧٨ ، ١٨٠ .
(٤) طبرى ١٠/٥٣ .
(٥) مروج الذهب ٤/١٧١ .
(٦) مروج الذهب ٤/١٦٣ ، ١٦٤ .

وكان إمامهم فى ذلك الخلفاء فإنهم أكثروا من الجوارى كثرة مفرطة ، حتى ليروى أنه كان لدى المتوكل منهن أربعة آلاف جارية [١] ، وهى رواية مبالغ فيها ، غير أنها تدل على ما ثبت لدى الناس من كثرة جواريه ، ويقال إنه لما أفضت إليه الخلافة أهداه عبيد الله بن طاهر هدية فيها مائتا وصيف ووصيفة ، وكان فى الهدية محبوبة [٢] . وكانت شاعرة مغنية فوقعت عنده أعظم موقع واقترن بها ، ووفت له بعد موته وفاء منقطع النظير . وظلت هذه السيول تتدافع إلى قصر الخلافة طوال العصر من كل قطر ، ويُرْوَى أن زيادة الله بن الأغلب أهدى المكتفى حين ولى الخلافة مائة وخمسين جارية [٣] . ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن أمهات الخلفاء فى العصر كُنَّ من الجوارى ، وخاصة جوارى الترك والروم ، وكُنَّ يتدخلن فى شئون الحكم ، فكل جارية تحاول أن تقيم فى المناصب العليا أقرباءها والمقربين منها ، على نحو ما كانت تصنع أم المقتدر بأخرة من العصر ، حتى فسد الحكم لعهده فساداً لا يمكن إصلاحه ، وفسحت لأخيها الرومى المسمى غريباً فى النفوذ والسلطان ، فزاد الطين بلة ، وزاد بلة ثانية بما أتاحت لقهرمانتها أم موسى من إسنادها نقابة بنى هاشم لأخيها ، وأتاحت لقهرمانتها الثانية ثمل — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — أن تقعد فى الرصافة كل يوم جمعة للنظر فى المظالم .

وكانت الجارية الجميلة تباع بألف دينار وأكثر ، وكان الناس يغدون ويروحون إلى سوق الرقيق ودور النخاسين يتفرَّجون على الوافدات الجديدات من الجوارى الفاتنات ، وكان النخاسون يجمعون منهن كثيرات ، حتى لقد كانت رءوس أموالهم تبلغ الألوف ، ويقول ابن المعتز عن نخَّاس منهم يسمى أحمد بن الحارث إنه كان يجتمع أحياناً عنده من الرقيق ما يبلغ مائة ألف دينار [٤] ، ويذكر أبو الفرج الأصبهانى عن نخاس يسمى أبا عمير أنه كان له جوار لهن ظرف وأدب ، وكان ابن البواب الشاعر يألف جارية منهن يقال لها عبادة ويكثر غشيان منزل أبى عمير من أجلها فأصابه ضيق شديد ، فانقطع عن زيارتها ثم نازعته نفسه إلى

---

(١) مروج الذهب ٤/٤٠ .

(٢) أغانى (ساسى) ١٣٢/١٩ ونساء الخلفاء لابن الساعى ص ٩٢ .

(٣) مروج الذهب ٤/٢٠٠ .

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٤٢٦ .

لقائها وصعب عليه الصبر عنها ، فأتى عبادة ، ووجد الجارية ورفاقه يعاتبونه على تأخره عنهم وعن صاحبته ، ولم يلبث أن أنشأ يقول :

لو تشكّى أَبو عميرٍ قليلاً لأَتيناه من طريق العِيادهْ
فقضينـــا من العيادة حقًّا ونظرنا فى مُقْلتى عبـــاده

فقال أبو عمير : مالى ولك يا أخى ، انظر فى مقلتى عبادة متى شئت غير ممنوع ، ودعنى أنا فى عافية لا تتمنّ لى المرض لتعودنى [١] . وواضح من امتناع ابن البواب عن زيارة أبى عمير حين ألمت به ضيقة أن الشعراء وغيرهم حين كانوا يختلفون إلى دور النخاسين كانوا يحملون معهم كثيراً من الهدايا للنخاسين وجواريهم ، مما كان يكلفهم أموالا كثيرة ، وإلى ذلك يشير الجاحظ فى رسالته عن القيان إذ يذكر عن النخاس «أن من فضائله أن الناس يقصدونه بالرغبة كما يُقْصَدُ بها الخلفاء والعظماء فيُزار ولا يكلَّف الزيارة ، ويوصَل ولا يُحْمَل على الصلة ، ويُهْدَى إليه ولا تُقْضَى منه الهدية» [٢] . ويصور الجاحظ تفنن الجارية فى اللعب بألباب الرجال ، إذ لا تزال تنصب أشراكها باللحظ والتبسم وإظهار الشوق إلى طول مكث من يختلف إليها والحزن لفراقه والصبابة لسرعة عودته ، فإذا أحسَّت أنه وقع فى الشَّرَك أوهمته أنها تعلَّقت به وأنه شَجْوها فى فكرها وضميرها وليلها ونهارها وأنها لا تريد سواه ولا تؤثر أحداً على هواه وأنها لا تبتغيه لماله وهداياه وإنما لنفسه ، ثم جمَّشته بعضوض تفاحها وتحيات من ريحانها وزوّدته بخصلة من شعرها وقطعة من ثيابها ، يقول الجاحظ وربما زارته فى بيته وأمكنته من القبلة فما فوقها . لذلك لا نعجب حين نراهن يَسْتَعْرِنَ قلوب الشعراء ، وحين نرى الشعراء عاكفين عليهن وقد بذلن لهن كل ما استطاعوا من هدايا وتحف وطرف نفيسة ، وفى ذلك يقول على بن الجهم متحدثًا عن جوارى نخَّاس يسمى المفضل وابتزازهن وابتزاز صاحبهن أموال من يزورونهن [٣] :

أَوانِسُ ما فيهنَّ للضيف حِشْمَةٌ ولا رَبُّهن بالمهيبِ المُبَجَّـــلِ

(١) أغانى (ساسى) ٢٠ / ٤٣ .
(٢) رسائل الجاحظ نشر فنكل ص ٧٣ .
(٣) ديوان ابن الجهم (نشر المجمع العلمى العربى بدمشق) ص ٥٢ .

يُسَرُّ إذا ما الضَّيفُ قَلَّ حَياؤه ويَغْفل عنه وهْو غيرُ مغفَّلِ
ولا يدفع الأيدى السفيهةَ غيرةً إذا نال حظًّا من لبوسٍ ومأْكلِ
لك البيتُ ما دامتْ هداياك جمَّةً ودُمْتَ مليًّا بالشراب المعسَّل

وكأن دار النخاس تعد « باراً » كبيراً وجواريه ما يزلن يختلفن إلى رُوَّاده . وكان كثيرات منهن مثقفات بفنون الآداب ، فكن يجذبن الرجال والشباب والشعراء بجمالهن وعذوبة حديثهن ، بل كان منهن كثيرات يحسنّ نظم الشعر مثل فضل الشاعرة ومثل محبوبة جارية المتوكل .

ولم يكن المجتمع العباسى يُعْنى بفن كما كان يعنى بالغناء والموسيقى ، ويتضح ذلك من كثرة الكتب المترجمة منذ مطالع العصر فى الفن الموسيقى على نحو ما يتضح فى أوائل ترجمة إسحق الموصلى فى كتاب الأغانى وكذلك ما ساقه منها كتاب الفهرست لابن النديم ، ولم يلبث العرب أن شاركوا مشاركة قوية فى هذا التأليف منذ الخليل بن أحمد صاحب العروض المتوفى سنة ١٧٠ للهجرة . ويتكاثر هذا التأليف فى القرن الثالث ، وخاصة فى بيئة المتفلسفة مثل الكندى وله فى الموسيقى كتب مختلفة[١] ، وكذلك لتلميذه[٢] أبى الطيب السرخسى ولقسطا[٣] بن لوقا البعلبكى ، فلكل هؤلاء مؤلفات فى الموسيقى أحصاها ابن النديم فى فهرسته . وخلف من بعدهم الفارابى بأخرة من العصر فأربى على كل سالف وخالف من اليونان والعرب جميعاً على نحو ما يتضح فى مصنَّفه كتاب الموسيقى الكبير ، وقد استطاع أن يدخل تحسينات على آلة القانون الإغريقية . وعلى نحو ما يسوق ابن النديم كتب المتفلسفة فى الموسيقى يسوق كتب المغنين فيها وفى الغناء والمغنين والمغنيات ، ولإسحق الموصلى فى ذلك نشاط واسع ، ومن أشهر من خلفوه فى القرن الثالث على التأليف فى هذا الفن بَذْل[٤] ، وكان لها كتاب فى الأغانى يشتمل على اثنى عشر ألف صوت ، ودنانير البرمكية ويقول أبو الفرج لها كتاب مجرد فى الأغانى مشهور[٥] ، وممن ذكرهم ابن النديم النَّصْبى وله كتاب فى الأغانى ألفه

(١) الفهرست ص ٣٧٣ .
(٢) الفهرست ٢١٩ ، ٣٨٠ .
(٣) الفهرست ص ٤٢٤ .
(٤) الأغانى (ساسى) ١٥ / ١٣٨ .
(٥) الأغانى (ساسى) ١٦ / ١٣١ .

على حروف المعجم للمتوكل[١].

ومنهم جحظة وله كتاب فى الطَّنْبوريين[٢]، ويذكر أبو الفرج أن لعمر وبن بانة كتابًا فى الأغانى يُعَدّ من الأصول المهمة فيها[٣]، كما يذكر أنه كان لأحمد ابن يحيى المكى كتاب سماه المجرد فى الأغانى كان يحتوى على أربعة عشر ألف صوت[٤]، وكان لمحمد بن على بن أمية المعروف باسم أبى حشيشة كتاب فى أخبار الطنبوريين[٥]. وعمل فى هذا العصر كثير من المغنين على تحسين آلات الغناء وتغذيته بالألحان الأجنبية، وخاصة أن كثرتهم كانت من الموالى فُرْسًا وغير فرس، بل إن منهم مَن اخترع بعض الآلات مثل زُنام الزامر، فقد اخترع نايًا نُسب إليه، فقيل نای زُنامیّ[٦]. ومما يدل على ما كان للغناء حينئذ من سمو المنزلة أننا نجد طائفة من الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة تشارك فى وضع أصواته مثل المنتصر[٧] والمعتز[٨] والمعتمد[٩] وابن المعتز[١٠] وعبيد[١١] الله بن عبد الله بن طاهر، واشتهر بأنه كان يستطيع أن يجمع ألحانًا كثيرة فى صوت واحد، وكانت له كتب فى النغم وعلل الأغانى.

وكانت تتقابل فى الغناء حينئذ مدرستان: مدرسة محافظة تتمسك بالأصول والأوضاع الموروثة ويمثلها إسحق الموصلى، ومدرسة مجددة لا تزال تضيف إلى التراث الفنى فى الغناء أصواتًا وأنغامًا وألحانًا ويمثلها إبراهيم بن المهدى، ويحكى أبو الفرج بعض وجوه الخلاف بينه وبين إسحق، فيقول إنهما كانا يختلفان فى مدلول بعض المصطلحات، فما كان يسميه إسحق ثقيلا أولا وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدى ثقيلا ثانيًا وخفيفه، وما كان يسميه إسحق ثقيلا ثانيًا وخفيفه كان يسميه إبراهيم بن المهدى ثقيلا أولا وخفيفه، ويقول أبو الفرج: «وأما التجزئة والقسمة فإنهما أفنيا أعمارهما فى تنازعهما فيهما، حتى كان يمضى لهما

---

(١) الفهرست ص ٢١٤.
(٢) الفهرست ص ٢١٤.
(٣) أغانى (دار الكتب) ٢٦٩/١٥.
(٤) أغانى ١٦/ ٣١١.
(٥) الفهرست ص ٢١٤.
(٦) تاج العروس للزبيدى ٣٣٠/٨.
(٧) أغانى (دار الكتب) ٣٠٩/٩ وانظر فى أصوات أخيه أبى عيسى الأغانى ٢٠١/١٠.
(٨) أغانى ٢٠٥/٩.
(٩) أغانى ٣٢٣/٩.
(١٠) أغانى ٢٧٧/١٠.
(١١) أغانى ٤٠/٩ وما بعدها.

الزمان الطويل لا تنقطع مناظرتهما ومكاتبتهما فى قسمة وتجزئة صوت واحد[١]» .
وقد توزَّعا المغنين والمغنيات فى القرن الثالث ، فكان من ينكر تغيير الغناء القديم يأخذ بمذهب إسحق، ومَنْ رأى التجديد والتغيير فى الألحان يأخذ بمذهب ابن المهدى . ونستطيع أن نعين أهم من تعصبوا لهذا أو ذاك، فممن كان يتعصب لإسحق من المغنين المشهورين فى هذا العصر أحمد بن يحيى المكى ، وله ترجمة[٢] فى كتاب الأغانى وكان إسحق يقدمه ويؤثره ، ولحق عصر المستعين ، وكان ابنه محمد يحذق الغناء على شاكلته ولحق عصر المعتمد . وممن كان ينهج منهج إسحق بُنان، وكان أخصَّ الناس بالمتوكل والمنتصر ، وكان إذا اجتمع هو وزنام الزامر على الضرب بالعود والزمر أحسنا وفتنا وأعجبا . ومنهم أيضًا عبد الله[٣] بن أبى العلاء، وقد عُمِّر إلى آخر أيام المعتصد وكانت تقوَّم دابَّته وثيابه إذا ركب بألف دينار ، وابنه أحمد كان من المغنين النابهين . وممن كان على نهج إسحق أيضًا القاسم بن زُرْزور وولده وجوارى آل هاشم وآل الفضل بن الربيع ومَنْ جرى مجراهم ممن تمسَّك بالغناء القديم وحمله كما سمعه[٤] . وممن كان على مثاله أيضًا الزُّبير بن دَحْمان ، وكان متعصبًا لإسحق، فى حين كان أخوه عبد الله يتعصب لابن المهدى، فكان كل منهما يرفع من صاحبه ويشيد بذكره، يقول أبو الفرج : «فعلا الزبير بتقديم إسحق له» لجلالته عند الناس وتمكنه منهم وقبولهم منه[٥]، وكأن أنصار إسحق كانوا أكثر نفراً إذ كان الذوق العام يميل إلى المحافظة أكثر مما يميل إلى التجديد ، ولم يكن ذلك شيئًا خاصًّا بالغناء ، بل كان عامًّا فيه وفى الشعراء ، فقد كان الشعراء والمغنون جميعًا يستمسكون بالتقاليد الموروثة . وممن كان ينزع منزع إبراهيم بن المهدى ورغباته فى التجديد بالغناء عمرو بن بانه ، المنسوب إلى أمه ، وكان المتوكل أنيسًا به ، ونال منه جوائز كثيرة «وكان يذهب مذهب إبراهيم بن المهدى فى الغناء وتجنيسه ويخالف إسحق ويتعصب عليه تعصبًا شديداً ويواجهه بذلك وينصر إبراهيم بن المهدى عليه»[٦]، ويقول أبو الفرج إنه علَّم الغناء عشرة من الغلمان ، وطال عمره حتى سنة ٢٧٨ وكان يشاركه فى مذهبه محمد بن الحارث بن بسخنَّر ،

---

(١) أغانى ٩٦/١٠ وما بعدها .
(٢) أغانى ٣١١/١٦ .
(٣) أغانى ساسى ١١٤/٢٠ .
(٤) أغانى (دار الكتب) ٧٠/١٠ .
(٥) أغانى (ساسى) ١٤٤/٢٠ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ٢٦٩/١٥ .

وكان من المتعصبين على إسحق ، ويقول أبو الفرج : « أخذ الغناء عن إبراهيم بن المهدى ومن بحره استقى» ، وكان يُغَنِّى على المعزفة فنقله ابن المهدى إلى العود وواظب عليه حتى حذقه[١] ، وكان الخلفاء يسكبون عليه أموالهم سكبًا ، وخرَّج كثيرات من الجوارى اللائى برعن فى الغناء .

وعلى نحو ما كان المغنون حزبين : حزبًا يتبع إسحق الموصلى وحزبًا يتبع إبراهيم بن المهدى كذلك كانت المغنيات ، وممن كان يأخذ منهن بمذهب إسحق عَرِيب وجواريها من أمثال تحفة الزمارة وبدعة ، وترجم أبو الفرج ترجمة ضافية لها[٢] ذكر فى صدرها أنها كانت نهاية فى الجمال والظَّرْف وحسن الصوت وجودة الضرب وإتقان الصنعة والمعرفة بالنغم والألحان ورواية الأشعار ، اشتراها الأمين من مولاها المراكبى وكان عمرها سبعة عشر عامًا ونظمها فى جواريه الغلاميات ، واشتراها المأمون بعده بخمسين ألف درهم ، ثم اشتراها المعتصم بمائة ألف وأعتقها فهى مولاته ، وظلت تغنّى طوال حياتها وماتت عن سن عالية سنة ٢٧٧ لعهد المعتمد ، وقد أمر على بن يحيى المنجم أن يجمع غناءها الذى صنعته فأخذ منها دفاترها وصُحفها التى كانت سجِّلت فيها أصواتها ، وكتب ذلك كله فكان ألف صوت بارع ، واشتهرت جاريتها بدعة[٣] بالغناء وإتقانه على طريقة الموصلى ، وعاشت حتى سنة ٣٠٢ . وحاول بعض أعيان بغداد شراءها فطلب إلى على بن يحيى المنجم أن يفاوض عريب فى شرائها بمائة ألف دينار ، وجعل له عشرين ألفًا ، ورفضت بدعة فأعتقتها عريب ، ويقال إنها خلفت مالا كثيراً وجوهراً وضياعًا وعقارات . أما اللائى كن يتعصبن لإبراهيم بن المهدى فعلى رأسهن شارية[٤] جاريته ، وكان قد اشتراها بثمانية آلاف درهم ، حتى إذ اخرَّجها وذاع صيتها عرض عليه المعتصم فيها سبعين ألف دينار ، فأبى أن يبيعها له ضَنًّا بها ، واشتراها المعتصم بعد ذلك من تركته بخمسة آلاف وخمسمائة دينار . وكان المعتز يأنس لغنائها ، وطالت حياتها حتى لحقت المعتمد ، وكان يأبى أن يلحّن له أشعاره سواها وسوى عريب ، وأمر لها ذات مرة وقد غنته صوتًا بألف ثوب من الثياب الأنيقة . ومن جواريها اللائى

---

(١) أغانى (ساسى) ٨٢/٢٠ .

(٢) أغانى ١٧٥/١٨ وما بعدها .

(٣) أغانى ١٢٥/١٩ وعريب ٣٨ والطبرى ١٥٠/١٠ والهمدانى ص ١٥ .

(٤) أغانى (دار الكتب) ٣/١٦ وما بعدها .

اشتهرن بالغناء على طريقتها وطريقة ابن المهدى : مهرجان ومطرب وقمرية وشرّة وقد اشتراها المعتمد بعشرة آلاف دينار

وممن كنّ يحسنّ الغناء فريدة[١] زوجة المتوكل وجاريته محبوبة[٢] وقلم[٣] الصالحية وشاجى[٤] جارية عبيدالله بن عبد الله بن طاهر ، وقد نسب إليها كل ما صنعه من الغناء والأصوات . وكانت هناك جماعة كبيرة اشتهرت بالغناء على الطنبور فى مقدمتها أبو حشيشة[٥] الطنبورى الذى عاش إلى عصر المعتمد ، وسليمان[٦] بن القصار الطنبورى ، وكان المعتز أنيسًا به ، ويقال إنه غناه يومًا صوتًا فأعطاه مائة دينار مكيّة ومائتين مما ضُرب لخزانته ، وجحظة البرمكى وله ترجمة طويلة فى معجم الأدباء ، وعمر[٧] الميدانى ولم يكن فى الطنبوريين أصح غناء وأكثر تصرفًا منه ، وعبيدة[٨] الطنبورية ، وكانت تتقن الضرب على الطنبور إتقانًا بعيداً . وكثيراً ما كان يأخذ الغناء شكل جوقة ، وكانت آلات الغناء عادة أربعًا هى العود والجنك والقانون والمزمار ، وقد يوضع مكان القانون الطنبور[٩] . وكثيراً أيضًا ما كان يقترن الغناء بالرقص ، وفى مروج الذهب للمسعودى فصل[١٠] طريف يوضح صلته بالغناء والموسيقى وما كانت ترتفع به الحناجر من أشعار ، وفيه تسمّى أنواع الرقص وفنونه بأسماء أوزان الشعر من مثل الخفيف والرمل والهزج ، وبالمثل كانوا يقيسون الغناء ، مما يدل أقوى الدلالة على الصلة الوثيقة بين الفنون الأربعة : الغناء والموسيقى والرقص والشعر .

وكان للجوارى فى هذا الجو المشبع بالموسيقى والغناء أثر كبير فى شيوع الظرّف والرقة واللطف ، إذ دفعوا الشباب والشيوخ إلى تمثل كثير من العواطف والمشاعر التى تملأ قلوبهم لينًا وبِرًّا وعطفًا ووداً ، وقد خلبوا ألبابهم بحديثهن الساحر الذى يصب فى القلوب تارة رحيقًا وتارة حريقًا ، حديث العشق وما يشيع فيه من

---

(١) أغانى ٤/ ١١٤ .
(٢) أغانى (ساسى) ١٩/ ١٣٢ .
(٣) أغانى (دار الكتب) ١٣/٣٤٧ .
(٤) أغانى (ساسى) ٨/٤٢ ونشوار المحاضرة ٦٣/١ والديارات ص ١١١ وما بعدها .
(٥) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ٣/٥٧ والفهرست ص ٢١٤ .
(٦) أغانى (دار الكتب) ١٤/١١٢ .
(٧) أغانى (ساسى) ٢٠/٦٦ .
(٨) أغانى ١٩/١٣٤ .
(٩) التنوخى على المستطرف ٢/١٤٤ .
(١٠) مروج الذهب ٤/١٣٧ .

العواطف والمواجد ونور الأمل وظلام اليأس وما قد يتحول إليه من حب مادى كثير الشباك : شباك التضرع والأمل والطلب ، وحبّ أفلاطونى نقى كثير الحجُب : حُجبِ الطَّهْر واليأس والبراءة ، مما جعل الشعر يكتظ بمعانى الرقة واللطف المفرطين كما يكتظ بالظرف حتى ليصبح للظرفاء تقاليد خاصة فى الزى والنظر وتناول الطعام والشراب ، وقد أفرد لها الوشاء فصلا خاصًّا فى كتابه « الموشى » يدل على رقة الحسّ أوسع دلالة . ونستطيع أن ندخل فى فنون الظرف التى أشاعها الجوارى حينئذ إعجابهن بالأزهار وتعلقهن بها وشغف كثيرات منهن بكل زهر وريحان ، حتى لتلحق بالقصور حدائق كثيرة ويقام كثير من البساتين . وألهمت الأزهارُ الشعراء بكثير من الأشعار ، حتى ليصبح وصف الطبيعة بابًا مهمًّا من أبواب الشعر ، وليس ذلك فحسب ، فقد أحس الشعراء فى الأزهار معانى السلوى فى الحب والوصل ودنوه واتصاله وانقطاعه ، إلى غير ذلك من معان لا تحصى ، كأن يحس شاعر فى معنى الورد الخجل لاحمراره ويحس آخر انقطاع الوصل لسرعة ذبوله ، أو يحس شخص فى البنفسج عودة الوصل ورجوعه . وكانوا يتهادون بالأزهار والرياحين دالين بها على أمثال تلك المعانى ، كما كان يحيّى بها بعضهم بعضًا ، وكثرت التحية عندهم بالتفاح ، وكانت الجارية تترك على التفاحة أثر أخذها بفمها ، وقد تشققها بالمسك أو بالغالية أو بغيرهما من أنواع الطيب ، وقد تكتب عليها بيتًا أو بيتين تدل بهما على اللوعة ، ويقول ابن المعتز [1] :

وآثار وصلٍ فى هواكِ حفظتها ... تحيَّات ريحانٍ وعضَّات تُفَّاحِ

وكن يكتبن أبيات الحب الرقيقة على الثياب والأكمام والقلانس والعصابات والطرر والذوائب والمناديل والبسط والوسائد والأسرة [2] ، ويُرْوَى أن عريب كانت تلبس قميصًا موشحًا بالذهب ، كُتب فى وشاحه :

وإنى لأهواه مسيئاً ومحسناً ... وأقضى على قلبى له بالذى يقضى

فحتّى متى روحُ الرِّضا لا ينالنى ... وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

---

(١) الديوان ص ١٣٩ .

(٢) انظر الموشى للوشاء والعقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/٤٢٥ وما بعدها .

وكن يتنافسن فى التهادى بالتحف الجميلة وتبعهم الشباب والرجال . وليس ذلك فحسب ، فقد كن يتثقفن بثقافات العصر ، وعملن على شيوع الثقافة ، إذ كان منهن كثيرات يروين الأشعار والأخبار ، وينظمن الشعر نظماً بديعاً .

٤

المجون والشعوبية والزندقة

رأينا فى كتابنا العصر العباسى الأول كيف كانت موجة المجون حادة ، وقد انتقلت إلى هذا العصر بحدتها ، إن لم تكن زادت حدة فوق حدة ، إذ ظل الناس يُمْعنون فى شرب الخمر واحتساء كئوسها ، مدمنين عليها لا يرعوون ولا يزدجرون . ومعروف أن القرآن الكريم حرَّمها ، ولذلك أجمع الفقهاء على تحريمها ، لمجيء ذلك بنص القران ، وما كان محرَّماً بنصه لا يحلّ منه قليل ولا كثير . أما النبيذ فسكره محرم أيضاً بالقياس ، غير أن اجتهاد بعض فقهاء العراق الأحناف أداهم إلى تحليل بعض الأنبذة غير المسكرة كنبيذ التمر والعسل والتين والبُسْر وكالزبيب المطبوخ أدنى طبخ . فشرب الناس هذه الأنبذة وشربها الخلفاء، وتجاوزوا ما حلَّله الأحناف إلى المسكر المحرم من الأنبذة وغيرها، وفى ذلك يقول ابن الرومى :

أباح العراقىُّ النبيذَ وشُرْبَهُ ... وقال حَرامان : المُدامَةُ والسُّكْرُ
وقال الحجازىُّ : الشرابان واحدٌ ... فحلَّ لنا من بين قَوْليهما الخَمْرُ
سآخذ من قوليهما طرفيهما ... وأشربها لا فارق الوازرَ الوِزْرُ

وابن الرومى يريد بالحجازى الشافعى وبالعراقى أبا حنيفة ، وقد استحدث لنفسه مذهباً ثالثاً لم يحل فيه الأنبذة المسكرة فحسب بل أحلّ أيضاً الخمر ، وساد هذا المذهب لا بين أضرابه من الشعراء فحسب بل بين كثير من الناس ، وإن كان يجب أن نحتاط بالقياس إلى الخلفاء ، وأن نظن أنهم إنما تورطوا فى

---

(١) ديوان ابن الرومى (اختيار وتصنيف كامل كيلانى) ص ٧٨ .

الأنبذة فلم يقفوا عند أنواعها المحللة ، بل شربوا أنواعها المسكرة . وكان المتوكل يعقد فى قصوره مجالس كثيرة للمنادمة والشراب ، وكان يحب الشرب ومن حوله الورود والرياحين[١] وكان المعتز ابنه يزور الأديرة للشراب[٢] ، وكان يشرب فى قصوره بين ندمائه والمغنون يغنون بين يديه ، كما كان يشرب فى البساتين[٣] . وفرغ المعتمد — كما مر بنا فى غير هذا الموضع — للهو والشراب ، ويقول المسعودى : « كان مشغوفًا بالطرب والغالب عليه المعاقرة ومحبة أنواع اللهو والملاهى[٤] ، وديوان ابن المعتز ملىء بالخمر ودنانها وكئوسها وغَبوقها وصَبوحها . وكان القاهر مدمنًا شرب الخمر[٥] كما كان مولعًا بالغناء والسماع وجعله ذلك يأمر بأن تباع الجوارى المغنيات على أنهن لا يعرفن الغناء حتى يحصل منهن على من يريد بأرخص الأثمان ، وبالمثل حرم الخمر على الناس وكأنه يريد أن يعبها وحده[٦] ، وكان الراضى عاهد ربه ألا يشرب وظل على ذلك سنتين من خلافته مع إذنه لجلسائه وندمائه بالشرب ، ثم وجدوا له رخصة من يمينه فكفَّر عنها وعاد إلى الشراب ، وآخر الخلفاء المستكفى وكان قد ترك الشراب ، فلما ولى الخلافة دعا به تَوًّا وعاد إلى شربه[٧] .

وعلى هذا النحو كانت قصور الخلافة فى عصور كثير من الخلفاء كأنها مقاصف للشراب والسماع والغناء ، وبالمثل كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب المناصب فى الدولة وعلية القوم ، وتورط فيها بعض القضاة عن طريق النبيذ المحلل ، كما تورط كثير من علماء اللغة وغيرهم أمثال ابن دُرَيد ، كان يعكف عليها عكوفًا شديداً ، ويقول أبو حفص بن شاهين : « كنا ندخل عليه فنستحى مما نرى من العيدان المعلَّقة والشراب وقد جاوز التسعين »[٨] . وأوغل الشعراء فيها إيغالا . ومن يتصفح كتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى يحس أن بعض الناس أدمنوها إدمانًا شديداً . وكانوا يعقدون لها المجالس فى المساء والليل والصباح ، وآثروا ألا يقل عدد

---

(١) الديارات ص ١٦٠ وانظر فى صبوح . المنتصر أغانى (ساسى) ١٧/ ١٣٠ .
(٢) الديارات ص ١٦٤ وما بعدها .
(٣) الديارات ص ١٦٦ وما بعدها .
(٤) مروج الذهب ٤/ ١٣١ .
(٥) النجوم الزاهرة ٣/ ٢٤٥ .
(٦) ابن الأثير (طبعة أوربا) ٨/ ٢٠٤ .
(٧) مروج الذهب ٤/ ٢٦٧ .
(٨) النجوم الزاهرة ٣/ ٢٤١ .

الندماء عن ثلاثة ، وكان يدور عليهم بها السقاة والساقيات من الغلمان والجوارى وكانوا يزينون مجالس الشراب بالورود والرياحين ، كما كانوا يزينون رءوسهم أحيانًا بأكاليل الزهر .

وكان كرخ بغداد يكتظ بالمقينين وكانوا منبثين أيضًا فى سامراء ، وتحولوا بدورهم إلى ما يشبه حانات كبيرة ، ففيها الخمر ، وفيها القيان المغنيات ، وفيها الجوارى الظريفات الأديبات ، وكان الشعراء يختلفون إلى هذه الدور أو قل إلى هذه الحانات ومثلهم الناس من حولهم فيعبون من كئوسها ويتمتعون بالسماع ومغازلة الجوارى والقيان .

وكانت البساتين حول سامرّاء وبغداد تمتلئ بحانات الخمر والسماع ، وكان الشعراء والناس يختلفون إليها ، وقد يختلون بأنفسهم إلى زاوية فى بستان ويتخذون منها لأنفسهم حانة ، يشربون فيها على أزهار الرياض وأبصارهم تتملّى بجمال الجوارى وآذانهم تتمتع بالسماع ، وكثيراً ما يصور الشعراء هذا المتاع المضاعف بجمال الطبيعة وجمال المرأة ونشوة الخمر من مثل قول البحترى [1] :

اشربْ على زهر الرياض يَشُوبه ... زَهْرُ الخدود وزهرةُ الصَّهْباء
من قهوةٍ تُنْسِى الهمومَ وتبعث ال ... شَّوْقَ الذى قد ضَلَّ فى الأَحشاء

وكان من يعملون بالحانات من الأجانب سواء الرجال والنساء ، ويقول الجاحظ : « من تمام آلة الخمار أن يكون ذميًّا وأن يكون اسمه آذين أو مازيار أو أزدانقاذار أو ميشا أو شلوما ويكون أرقط الثياب مختوم العنق »[2] وتختلط فى النص أسماء فارسية ونصرانية ويهودية . أما الجوارى فكن من القيان الأجنبيات غالبًا ، وكانت تعجّ بهم حانات البساتين وحانات الكرخ ودور المقينين ، والشباب والشعراء يختلفون إليهن ، وكن من أجناس مختلفة ، وقلما كن يشعرن بشىء من الكرامة أو يستشعرن شيئًا من التحفظ والاحتشام ، بل لقد كن يتفنن فى الحيل التى يجذبن بها الرجال ، وكن يستكثرن من الخِلان بطرق غير مستقيمة ، فدفعن إلى

(١) الديوان ١ / ٦ .

(٢) البيان والتبيين (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/٩٢ .

كثير من الفجر والمجون ، وكل شيء من حولهن يُغْريهن على هذا السلوك الآثم ، وصوَّر ذلك الجاحظ ، فقال : « كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تُكْتَسَبُ الأهواء وتتعلَّم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصدّ عن ذكر الله من لهو الحديث . . . وبين الخلعاء والمجان ومن لا يُسْمَع منه كلمة جِدّ ، ولا يُرْجَعُ منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة . وتَرْوى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعداً يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، وعددُ ما يدخل فى ذلك من الشعر إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب فى ثواب ، وإنما بُنيت كلها على ذكر . . . القيادة والعشق والصبوة والشوق والغُلْمة ، ثم لا تنفكُّ من الدراسة لصنعتها منكبَّة عليها تأخذها من المطارحين الذين طَرْحُهم كله تجميش وإنشادهم مُراودة »[1] . وكان الزوار ينالون منهن ما يريدون ما داموا يقدمون للمقيِّن هداياهم النفيسة ، وكن بدورهن يتخذن من بينهم المعشوقين ، فما يزلن يغمزن هذا بعين وذاك بعين ، وما يزلن يُقمن من حولهن الشباك ، وكثير من الشعراء والشباب يتعثرون فيها ، وكثيرون كانوا يصلون إلى قلوبهن ، وهن لا يحتشمن ولا يتحرَّجن ، ودائمًا يُقمن حفلات الغناء والموسيقى والرقص .

واستحالت الأديرة فى هذا الجو الماجن إلى دور للعبث واللهو ، وهيأ لها ذلك أنها كانت تقدّم لرّوادها الخمور المعتقة . وكانت متناثرة فى ضواحى بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق ، فحوَّلها الشعراء والناس إلى مجالس للخمر والمجون ، وأكثروا من التغنى بها ووصف متاعهم بخمورها ونشوتها وسقاتها من الرهبان والراهبات ، حتى لتُؤَلَّف فى ذلك كتب مستقلة مثل كتاب « الديارات » للشابشتى وهو يكتظ بأشعار ابن المعتز وغيره ، وله يذكر لياليه بالمطيرة إحدى متنزهات سامرّاء وبالكرخ وحاناته وبدير السوسى وراهباته[2] :

---

(١) انظر ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل ص ٧١ وما بعدها .

(٢) الديارات ص ١٤٩ .

ياليـــالىَّ بالمَطيرة والكَرْ خ ودير السُّوسىِّ بالله عودى
كنتِ عندى أُنموذجاتٍ من الجَنَّـ ةِ لكنها بغير خلـــود

وكانت هناك أيام سنوية يخرج فيها أهل سامراء و بغداد وغيرهما من مدن العراق للهو والقصف والمجون وهى أيام الأعياد: أعياد الإسلام وأعياد الفرس وأعياد النصارى ، وكانت تشبه كرنفالات ضخمة يلهو الناس فيها لهواً مباحًا وغير مباح ويتفرجون على القصَّاص والحكَّائين وأصحاب المساخر الهزليين ، أما أعياد الإسلام فهى [redacted] عيد الفطر وعيد الأضحى . وفى ديوانى البحترى وابن المعتز إشارات لهما مختلفة[١]، وأما أعياد الفرس فمن أهمها عيد النيروز فى أول الربيع ، وهو أول السنة الفارسية ، وينوه الشعراء بذكره كثيراً كقول البحترى يهنئُ المعتمد به و بلحظات سروره[٢]:

لا تَخْلُ من عيشٍ يكرُّ سرورُه أَبدًا ونَيْروزٍ عليك معادِ

وكانو يكثرون من التهادى فيه ، ويروى أن المتوكل كان يهدى فيه هدايا متنوعة فيها تماثيل من عنبر وورود حمراء[٣]. وكانو يخرجون فيه إلى المتنزهات والبساتين يقصفون ويمرحون ويلهون ملاهى مختلفة . ومن أعياد الفرس عيد المهرجان فى أول الشتاء ، وفيه يقول البحترى[٤]:

وكأَن الأَيام أُوثر بالحُسْـ نِ عليها ذو المهرجان الكبيرِ

ولابن الرومى قصيدة طويلة يهنئُ فيها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر به ، وقد حشد فيها كثيراً من فنون اللهو فيه[٥]،وكان للفرس عيد يسمى عيد السَّذق كانوا يوقدون فيه النيران على الجبال والتلال ، ويظلون يجمعون لها الأحطاب أيامًا ، ومن أشهر ما كان فى هذ العيد احتفال مرداويج الديلمى أمير الجبل فى غربى إيران به، ويقال كان فى السماط الذى صنعه فيه ألف رأس من البقر[٦] .

(١) انظر ديوان البحترى ١٠٧١/٢ ، ١٠٩٦ وديوان ابن المعتز ص ١٨١ ، ٢٤٧ .
(٢) ديوان البحترى ٧٣٤/٢ .
(٣) الديارات ص ٥٧ .
(٤) الديوان ٨٨٧/٢ .
(٥) ديوان ابن الرومى (نشر كيلانى) ص ٨٢ .
(٦) مسكويه ٤٧٩/٥ وأبو الفدا فى عام ٣٢٣ وابن الأثير ٢٢٢/٨ .

أمَّا أعياد النصارى فكان تقريباً لكل دير عيد يخرج فيه الناس إليه للهو والمجون والهزل ، وكانت لهم أعياد عامة ، منها عيد الميلاد وكانو يكثرون فيه من إيقاد الشموع والنيران[١] ، ومنها عيد الشعانين أو عيد الزيتونة وهو يقع فى يوم الأحد الذي يسبق عيد الفصح من كل سنة ، وكان النصارى يتقلدون فيه الصلبان ويتوشحون بالمناديل المنقوشة ويحملون بأيديهم الخوص والزيتون . وكان الدير الأعلى فى الموصل يحتفل بهذا العيد احتفالا كبيراً . ومن أعيادهم عيد الفصح ، وعندهم أن عيسى قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام ، وكان يحتفل به دير سمالو شرقى بغداد ، ولا يبقى أحد من أهل الطرب واللهو إلا قصده للقصف والمجون ، وفيه يقول محمد بن عبد الملك الهاشمى[٢] :

ولرُبَّ يومٍ فى سمالو تَمَّ لى ... فيه السرور وغُيِّبَتْ أحزانُهُ
فتلاعبتْ بعقولنا نشواتُه ... وتوقَّدتْ بخدودنا نيرانُه
حتى حسبتُ لنا البِساط سفينَةً ... والدَّيْرَ ترقُص حولنا حيطانُه

وكان يقام فى أكتوبر عيد للقديسة أشمونى فى قُطْرَبُّل ، وهى قرية فى شمالى بغداد كانت أشبه بحانة للخمارين ، وكان الناس يذهبون من بغداد وسامراء إلى هذا العيد عن طريق الدواب أرضاً والسفن فى دجلة بحراً ، متنافسين فيما يُظْهِرونه هناك من زيهم وزينتهم ومباهين بما يُعِدُّونه لقصفهم ، وكانوا يضربون فى شط القرية ودبرها وحاناتها وأكنافها الخيم والفساطيط وتعزف عليهم القيان وهم يحتسون كئوس الخمر ، وبالمثل كانوا يصنعون فى عيد دير الزندورد بالجانب الشرقى لبغداد ، وفيه يقول جحظة[٣] :

ديرٌ تدور به الأقداحُ مترَعةً ... من كفِّ ساقٍ مريض الطَّرْف وَسْنانِ
والعودُ يتبعه نايٌ يوافقه ... والشَّدْوُ يُحْكمه غُصْنٌ من البَانِ

ولا شك فى أن كل ما قدمنا أعدَّ لانتشار المجون والخلاعة فى سامراء وبغداد ،

---

(١) ابن الأثير ٢٢٢/٨ وأبو الفدا فى عام ٣٢٣ .
(٢) الديارات ص ١٤ .
(٣) الديارات ص ٣٣٨ .

إذ كانت الخمر فى كل مكان ومعها القيان والجوارى المبتذلات ، فكان طبيعيًّا أن يعم كثير من الشعر الصريح ، بل المفرط فى إباحيته وفى التعبير عن الغرائز الجسدية . ولم يكن كل ما فى المدينتين العراقيتين الكبيرتين المجون وآثامه ، بل كان هناك تقى كثير ونسك وعبادة ، وهو ما حماهما من السقوط . على أن هؤلاء المجان والخلعاء تورطوا فى آفة مزرية ، هى آفة الشغف بالغلمان المرد ، وهى آفة ورثوها عن العصر العباسى الأول . على أن من أصحاب هذا الغزل المزرى من ارتفعوا به عن أدران المادة ، وجعلوه غزلا أفلاطونيًّا نقيًّا ، وسنفصل القول فى ذلك فى أثناء حديثنا عن شعراء الغزل ، على نحو ما هو معروف عن الفقيه محمد بن داود الأصفهانى وتعلقه بمحمد بن جامع الصيدلانى . ولا بد أن نذكر أن كثيرين من الفقهاء وعلماء الدين والوعاظ كانوا لا يزالون يشددون النكير على المجون وما اتصل به من خمور ومن سماع ، وبتأثيرهم حاول — كما قدمنا — المهتدى أن يحمل الناس على الجادة ، فحرم الشراب ونهى عن القيان والسماع إليهن ، غير أن العامة والخاصة استطالوا حكمه واحتال عليه الأتراك حتى قتلوه بعد سنة واحدة من خلافته ، وصنع صنيعه بأخرة من العصر المتقى ، ولكنه لقى سريعًا المصير نفسه . ويذكر ابن الأثير أنه فى عام ٣٢٣ للهجرة دبّر الحنابلة ببغداد حملة شعواء على المجون وفتشوا دور القواد والعامة ، وكانوا كلما وجدوا نبيذاً أراقوه أو آلة للغناء حطموها أو مغنية ضربوها ، وحرّموا على الرجال رفقة الصبيان والغلمان[1] .

وظلت مستعرة فى هذا العصر نيران الشعوبية على نحو ما كانت مستعرة فى العصر العباسى الأول ، إذ مضى كثيرون يشيدون بفضائل الشعوب القديمة وحضارتها ومدنيتها ، وفى مقدمتها الفرس بسياساتهم وآدابهم والروم بعلومهم وفلسفاتهم والهند بسحرها ومعارفها الرياضية وغير الرياضية . وانضم إلى هذه الدعوة كثيرون من أبناء الشعوب الأخرى ، من النبط والسريان وغيرهما ، منوهين جميعًا بما كان بديارهم من علوم وآداب وفنون وعمارة . وكأنما ذهبت أدراج الرياح مناداة الإسلام بهدم الفوارق العصبية بين القبائل والفوارق الجنسية بين الشعوب ، وكأنما كان هؤلاء الشعوبيون يبتغون أن يحدثوا صدعًا لا يلتئم ولا يمكن رأبه بين أفراد الأمة ، وقد لجئوا فى

(١) ابن الأثير ٨/٢٢٩ وما بعدها .

تصوير ما كان عليه الجاهليون — وعرب البوادى لعصرهم — من العيش الخشن ومن الغلظة والأطعمة اليابسة الجافة ، وكيف أن العرب كانوا — ولا يزال كثيرون منهم — بدواً رُعاة أغنام وإبل ، وأين هم من ملك الأكاسرة والقياصرة ؟ وأين هم من الحضارة الفارسية الرومية ؟ وأين هم من علوم الروم والفرس ؟ وكان كثير من العلماء قد كتب فى إفاضة عن مثالب القبائل فى القديم ، فاستغل الشعوبيون ذلك واتخذوا منه أسلحة لدعوتهم ، وحتى فضائل العرب من مثل الكرم والشجاعة حاولوا طمسها . ناقضين لها نقضًا .

وتصدَّى الجاحظ وابن قتيبة لهذه النزعة الآثمة وردَّا عليها ردًّا عنيفًا ، أما الجاحظ فعقد فى كتابه « البيان والتبيين » بابًا طويلا سماه « كتاب العصا » صوَّر فيه طعن الشعوبية على العرب فى خطابتهم ، إذ كانوا يشيرون فيها بالعصى والمخاصر ، كما كانوا يتكئون على القِسىّ ، مما يصرف — فى رأى الشعوبيين — الخاطر ويشغل الذهن فى أثناء الخطابة . وزعموا أن الخطابة ليست ميزة ينفرد بها العرب دون سواهم ، إذ هى فى جميع الأمم حتى الزنج . وزعموا — فيما زعموا — أن الفرس أخطب من العرب وأن لهم فى صناعة البلاغة كتبًا متوارثة . وطعنوا على العرب أيضًا فى أسلحتهم الحربية الساذجة بالقياس إلى أسلحة الفرس والروم وما عُرفا به من التنظيمات الحربية وآلات الحرب الضخمة من مثل المجانيق والعرَّادات . وكل ذلك نازعهم فيه الجاحظ فى عنف شديد ، ولكى يبلغ كل ما كان يريد من إفحامهم ومقاومتهم جعل كتابه « البيان والتبيين » ردًّا مفحمًا عليهم ، إذ خصصه لعرض الثقافة العربية الخالصة فى صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال ، كى يروا رؤية العين ما فى هذه الثقافة من فيم بلاغية وجمالية ، فينتهوا عن مزاعمهم ويثوبوا إلى رشدهم . وأما ابن قتيبة فألف فى الرد عليهم مبحثًا سماه [1] « كتاب العرب أو الرد على الشعوبية » وهو فى مطالعه يذكر أن من أشد الشعوبيين عداوة للعرب قومًا من كتَّاب الدواوين امتعضوا لآداب أقوامهم ، حتى اعتزى أو انتسب نفر منهم إلى أشراف العجم وأساورتهم ، داخلين بذلك فى باب فسيح من الدعوى

(١) انظر هذا الكتاب فى رسائل البلغاء لمحمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣٤٤ وما بعدها .

والنسب المتهم لا حجاب عليه ولا مدافع عنه ، ويقول إنهم كانوا يُزْرون على الحكم والأمثال العربية ويتبجّحون بما يروون عن الفرس واليونان من آداب وعلوم . ولم يكتف بعنفه عليهم فى هذا المبحث الطريف ، فقد عنف بهم فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » مصوراً قصورهم عن النهوض بوظيفتهم الأدبية فى الدواوين لنقص ثقافتهم العربية ، وحاول محاولة طريفة فى كتابه « عيون الأخبار » أن يجمع بين تلك الثقافة والثقافات الأجنبية ليبين أنها كلها ضرورية ولا تعارض بينها بوجه من الوجوه مما قضى على الشعوبية قضاء مبرماً على نحو ما سنُصَوّر ذلك فى الفصول التالية .

ومن أهم الكتّاب الذين كانوا يستشعرون هذه النزعة الحمقاء سعيد بن حميد بن البَخْتكان ، وكان من أبناء دهاقين الفرس وزعم أنه من سلالة ملوكهم ، وله فى الشعوبية والتعصب لقومه كتب مختلفة ، منها كتاب فضل العجم على العرب وافتخارها[1] . ويبدو أن الجاحظ وابن قتيبة جميعاً استطاعا أن يقضيا قضاء مبرماً على الشعوبية فقلما نسمع بعدهما بشعر شعوبى أو بمن ألف فى الشعوبية وانتصر لها . وقد أشرنا فى كتاب العصر العباسى الأول إلى أن بعض الباحثين أدخل فى هؤلاء الشعوبيين مَنْ يقولون بالتسوية بين العرب وغيرهم ، ويجب أن ينحوا عن هذه الجماعة الضالة ، لأنهم كانوا فى الواقع ينادون بنظرية الإسلام وما دعا إليه من المساواة بين جميع الأفراد فى الأمة عرباً وغير عرب ، مساواة تشمل جميع الحقوق والواجبات بحيث لا يَفْضُلُ مسلم صاحبه إلا بالتقوى والعمل الصالح كما جاء فى الذكر الحكيم : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) . وأيضاً كما جاء فى خطبة حجة الوداع : « أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى » ، وبذلك يتضح أن التسوية بين الشعوب هى نظرية الإسلام ، فلا عربى يفضل أعجمياً ولا أعجمى يفضل عربياً من حيث النسب والقومية ، إذ ليست العروبة ولا العجمة فى الإسلام ميزة تُعلى من شأن صاحبها ، فالناس جميعاً سواسية . وإذن فمن

(١) الفهرست لابن النديم ص ١٨٥

الخطأ أن نَحْمل القائلين بالتسوية على الشعوبيين أو على القول بالشعوبية، إنما الشعوبيون هم الذين يُعْلون الأعاجم على العرب وينادون بعدم التسوية حانقين حنقاً شديداً على كل ما هو عربى ، بل إن الضغينة لتأكل قلوبهم أكلا فإذا هم يودون لو ثأروا لآبائهم من العرب حين أزالوا ملكهم ونقضوا عروشهم فردوهم إلى ديارهم على أعقابهم مدحورين . وممن كان يذهب هذا المذهب فى الحماقة والجهالة والعداوة للعرب المتوكلى الشاعر المنسوب إلى المتوكل لأنه كان من ندمائه ، إذ يقول فى شعوبية حاقدة ذميمة[1] :

أنا ابنُ الأكارم من نَسْل جَمْ ... وحائزُ إرثِ ملوكِ العجمْ
وطالبُ أوتارهم جَهْرةً ... فمن نام عن حقِّهم لم أنَمْ
فقُلْ لبنى هاشمٍ أجمعين ... هلموا إلى الخَلْع قبل النَّدمْ
وعودوا إلى أرضكم بالحجاز ... لأكل الضِّباب وَرَعْىِ الغَنَمْ
فإنى سأعلو سريرَ الملوك ... بحدِّ الحُسام وحَرْف القَلَمْ

وواضح أن قلب المتوكلى يضطرم حقداً وضغينة على العرب ، حتى ليظن نفسه أنه من أبناء جم أو جمشيد الملك الفارسىّ القديم وأنه قد وُكل إليه أخذ الثأر أو الأثآر من هؤلاء الذين قوضوا ملك آبائه ، وإنه ليتجه إلى حكام الأمة من بنى هاشم مهدداً لهم متوعداً ومنذراً أن يبادروا إلى خلع أنفسهم والعودة إلى موطنهم الأصلى فى الحجاز ، ليعيشوا كما كان يعيش آباؤهم معيشة غليظة خشنة يأكلون فيها اليرابيع والضباب ، ويرعون الأغنام ، على نحو ما يرعى ويأكل نازلة القفر والفلوات ، وكأنه نسى أن بنى هاشم من قريش سكان مكة فى القديم وأنهم لم يكونوا رعاة ولا أهل جفاء وخيام ، ولكنها الشعوبية العمياء الرَّعْناء .

ولعل أسوأ ما أدت إليه هذه الشعوبية الحمقاء الزنا قة والزنادقة الذين كانوا يبغضون العرب وكل ما اتصل بهم من إسلام وغير إسلام . ويوضح ذلك الجاحظ قائلا : « إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادى فيه وطول الجدال المؤدى إلى الضلال ، فإذا أبغض شيئًا أبغض أهله ، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحبَّ من أبغض تلك

(١) ضحى الإسلام (الطبعة السابعة) ١/٦٥ .

الجزيرة ، فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام ، إذ كانت العرب هي التي جاءت به ، وهي السلف والقدوة »[١] . ومرَّ بنا في العصر العباسي الأول أن الزندقة إنما كان يُوصَمُ بها أولا من يتابعون ماني في عقيدة النور والظلمة وما اتصل بها من مبادئ ، بالضبط كما كانت تطلق عند الفرس . والزنادقة المعتنقون لهذه الأفكار هم الذين كانوا يحاكمون زمن المهدي وابنه الرشيد ، ثم اتسع مدلولها فشملت كل من اعتنق نحلة فارسية من نحل المجوس كنحلة المزدكية وما دعت إليه من التحلل الخلقي والإباحية المسرفة ، واتسعت أوسع من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف أو بالديانات مطلقًا وكل مجاهرة بالعصيان والإثم والفسق . ومر بنا أيضًا في العصر العباسي الأول كيف أن المتكلمين — وفي مقدمتهم المعتزلة — تجردوا لجدالهم ونقض أقوالهم وآرائهم الخبيثة . وعقدوا لذلك مناظرات كانوا يُفْحمونهم فيها إفحامًا شديداً ، على نحو ما صوّر ذلك الجاحظ عن النظّام في كتابه الحيوان ، وألّفوا أيضًا الكتب والرسائل الطوال .

ولم تهدأ حركة الإلحاد والزندقة في هذا العصر التالي ، بل لقد اشتد أوارها ، إذ تحول كثيرون منهم إلى التشكيك في النبوات عامة . وكان من أشدهم نفر بدءوا حياتهم في صفوفهم المعتزلة ، وما زالوا يُبْطنون الإلحاد حتى افتضح أمرهم وانكشف سرهم ، وفي طليعتهم أبو عيسى الوزاق المتوفى سنة ٢٤٧ للهجرة[٢] وكان في أول أمره معتزليًّا . وأحسَّ المعتزلة فيه إلحاده فطردوه عنهم ، فتحول شيعيًّا رافضيًّا ، وينعته الخياط بأنه كان مانويًّا يؤمن بأزلية النور والظلمة وقدم العالم[٣] ، ويبدو أنه أنكر النبوات وأن له في ذلك بعض الرسائل[٤] . وقد أثر تأثيراً واسعًا في تلميذه أبي الحسين أحمد بن إسحق الرَّاوَنْدي[٥] المولود فيما بين سنتي ٢٠٥ و ٢١٥

---

(١) الحيوان ٧/٢٢٠ .

(٢) مروج الذهب ٤/٢٣ .

(٣) كتاب الانتصار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ١٥٢ .

(٤) انظر مجموعة من النصوص غير المنشورة متعلقة بتاريخ التصوف في الإسلام لماسينيون (طبع باريس ١٩٢٩) ص ٨٢ .

(٥) انظر في ابن الراوندي وأستاذه أبي عيسى الوراق كتاب من تاريخ الإلحاد في الإسلام لعبد الرحمن بدوي (نشر مكتبة النهضة المصرية) وانظر في ترجمة ابن الراوندي ووفاته مروج الذهب ٤/٢٣ وابن خلكان ومعاهد التنصيص (طبعة بولاق) ١/٧٦ ومرآة الجنان لليافعي ٢/١٤٤ ، ٢٣٧ والنجوم الزاهرة ٣/١٧٥ وشذرات الذهب لابن العماد ٢/٢٣٥ ومقدمة نيبرج لكتاب الانتصار وتاريخ أبي الفدا في عام ٢٩٣ .

وكان يعتنق فى أول الأمر الاعتزال وصنَّفَ عدداً من الكتب فى مناصرته ونَشْرِه بين الناس ، ثم تحول عنه إلى التشيع على مذهب الرافضة مثل أستاذه أبى عيسى وصار أعنف خصوم المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى ، بل لقد تمادى فى ذلك حتى كفر بالدين وجميع الديانات وألف فى ذلك كتبًا مختلفة يسميها صاحب الفهرست باسم الكُفْريات . ولما ارتفع اسمه إلى مسامع الحكام خشى مغبة ذلك وأن يُرْمَى به فى غياهب السجون فاختبأ فى منزل أبى عيسى بن لاوى اليهودى الأهوازى ، وله صنَّف بعض كفرياته ، وما زال مختبئًا بمنزله حتى توفى على ما يقول المسعودى وابن خلكان حوالى سنة ٢٥٠ للهجرة وقال ابن الجوزى وابن تغرى بردى إنه توفى سنة ٢٩٨ ويرجح التاريخ الثانى ما يذكره ابن الأنبارى فى نزهة الألباء بترجمة المبرد عن كتابه المقتضب وأنه لم يُكتب له الرواج ، لأن ابن الراوندى الملحد رواه .

وسقطت كتب ابن الراوندى فى العصور التالية من أيدى الزمن ، فلم يصلنا منها شىء ، ولكن وصلتنا شذور ومقتطفات فى كتب بعض من ردوا عليه أو من ترجموا له ، من ذلك كتاب المجالس المؤيدية لهبة الله الشيرازى داعى دعاة الفاطميين لعصر المستنصر إذ جلب اقتباسات[1] من كتابه « الزمردة فى دفع النبوات » وفيها نراه يردُّ إنكار النبوات إلى البراهمة الهنود تضليلا حتى يبعد التهمة عن نفسه ، وكأنه إنما يتكلم بلسانهم ، وهو يستهلُّ كلامه بأن الله أنعم على الإنسان بالعقل ليميز الحسن من القبيح والخير من الشر ، وإذن فلا داعى للرسل ، لأنهم إما أن يؤكدوا هذا التمييز العقلى الذى يُغْنى عنهم فيه العقل ، وإما أن يبطلوه أو ينقضوه وحينئذ تكون نبوتهم عبثًا ولا حاجة للإنسان بها ، ويقول إن الرسول عليه السلام أتى بما ينافر العقول من مثل الصلاة وشعائر الحج ومناسكه ، وينفى المعجزات النبوية ، ويزعم أن فصاحة القرآن ليست معجزة وخاصة بالقياس إلى العجم الذين لا يدركون الفصاحة العربية . ويردد نفى المعجزات النبوية وأن الملائكة نصروا رسول الله فى غزوة بدر وأنه أُسرى به إلى بيت المقدس ، ويمضى فى لغو من هذا النوع ، ونرى ابن الجوزى ينقل فى كتابه المنتظم شذرات[2] أخرى من مصنفه الزمردة ،

---

(١) انظر فى هذه الاقتباسات وتحليلها كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ٧٥–١٨٨ .

(٢) راجعها فى كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١١١ .

ويبدو أن ابن تغرى بردى نقلها عنه ، من ذلك أنه كان يقول : « إنا نجد فى كلام أكثم بن صيفى الحكيم الجاهلى أحسن من (إنا أعطيناك الكوثر) و (قل أعوذ برب الفلق) وإن الأنبياء وقعوا (اهتدوا إلى) بطلسمات تجذب كما أن المغناطيس يجذب الحديد أما قوله صلى الله عليه وسلم لعمار : تقتلك الفئة الباغية (كان مع على بن أبى طالب فى صفين وقتله جيش معاوية) : فإن المنجم — فى رأيه — يقول مثل هذا إذا عرف المولد وأخذ الطالع . ويقول ابن الجوزى : « كان ابن الروندى وأبو عيسى محمد بن هرون الوراق الملحد يترامیان بكتاب « الزمرد » ويدعى كل واحد منهما على الآخر أنه تصنيفه ، وكانا يتوافقان على الطعن فى القرآن[١] » . أما كتابه الكفرى الثانى الذى خصّ به الرد على القرآن فهو كتاب « الدامغ » ، ويقال إنه صنف هذا الكتاب إرضاء لليهودى الذى كان يؤْويه ، وهو فيه ينكر إعجاز القرآن كما مر بنا فى حديث داعى الدعاة الفاطمى ؛ ويزعم أن فى كلام الجاهليين ما هو أفصح منه وأبلغ ، ويقول ابن الجوزى إنه بدأ فيه بالطعن فى القرآن وبلاغته حتى لقد زعم — بهتاناً وزوراً كبيراً — أن به أخطاء لغوية .

ولعل فى ذلك ما يصور — من بعض الوجوه — الهجمات العنيفة التى كان يصوّبها الملحدون فى القرن الثالث الهجرى إلى الإسلام والقرآن الكريم بل إلى الديانات عامة . ومن هنا نفهم السر فى أن الخليفة المعتمد حلّف الورّاقين لسنة ٢٧٩ ألاّ يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة[٢] ، فقد كان من المتفلسفة والمتكلمين من يبطنون الإلحاد[٣] والزندقة ويدخلونهما على ما يصنفون من الكتب . وكان أهمّ من نقض على ابن الرّاوندى كفرياته معاصره أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد المعروف بالخياط ، وقد نشر له المستشرق نيبرج كتابه « الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد ما قصد به من الكذب على المسلمين والطعن عليهم » ، وكذلك عُنى بالرد عليه معاصره أبو على[٤] محمد بن عبد الوهاب

---

(١) من كتاب تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١١٣ .

(٢) طبرى ١٠/٢٨ وابن تغرى بردى ٣/ ٨٠.

(٣) الفهرست ص ٤٨٧ .

(٤) يقول ابن الجوزى إنه نقض خمسة كتب له فى مقدمتها الزمردة والدامغ . انظر من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١٦٢ ويورد الكتاب هنا من نقضوا كتابه فى تفصيل وإسهاب .

الجبّائى . وكان أهم من ورث عن ابن الراوندى إلحاده وزندقته وطعنه على الدين الحنيف ، بل على جميع الديانات الطبيب أبو بكر محمد[١] بن زكريا الرازى المتوفى سنة ٣٢٠ ، وكان كيمائيًا ماهراً إلا أنه اتبع هواه وضل ضلالا بعيداً إذ مضى على هدى ابن الراوندى وأشباهه ينكر النبوات وألف فى ذلك كتابه « مخاريق الأنبياء » وسقط بدوره من يد الزمن ، إلا أن أبا حاتم الرازى أورد فى كتابه « أعلام النبوة » اقتباسات كثيرة منه ردّ عليها ونقضها نقضًا ، وقد حلّلها الدكتور بدوى تحليلا[٢] جيداً ، وأظهر أنه يتابع فى حججه وأدلته ابن الراوندى ، فالعقل يكفى وحده لمعرفة الخير والشر ، ولا حكمة ولا داعى لإرسال الأنبياء ، وأيضًا لا معنى لأن يخص الله نفراً (يريد الأنبياء) من البشر لإرشادهم وتوجيههم ، والناس جميعًا متساوون فى الفطن والمواهب . وبرهانه المنكسر ما ذكره من أن الأنبياء متناقضون فيما بينهم ، زاعمًا أن اختلافهم لم يصدروا فيه عن الله جاهلا بأنه كان من حكمة الله أن يحدث هذا الاختلاف تخفيفًا على الناس ورحمة بهم . وينقد الأديان عامة ويدخل فيها ديانات المجوسية ، كما ينقد الكتب المقدسة ، ويزعم أنها جميعها زاخرة بالتناقض ، وأن خيراً منها للناس العلوم التى استنبطها الفلاسفة والعلماء بعقولهم . وهو خلط بين حاجات البشر المادية وحاجاتهم الروحية . ولعل فى هذا كله ما يصور نشاط الملحدين والزنادقة فى العصر وكان لهم المعتزلة والمتكلمون بالمرصاد فنقضوا آراءهم وأوضحوا ما فيها من فساد وزيف ودحضوها دحضًا .

٥

الزهد والتصوف

يجب ألا يتبادر إلى الأذهان من حديثنا عن الزندقة والشعوبية والمجون فى العصر العباسى الثانى أنه كان عصراً مُلحداً غلبت عليه العنصرية كما غلب المجون

---

(١) انظر فى ترجمته الفهرست ص ٥١٨ وابن أبى أصيبعة والقفطى ص ٢٧١ ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر كتاب من تاريخ الإلحاد فى الإسلام ص ١٩٨ .

والإلحاد وانحلال الأخلاق فإن ذلك إنما كان يشيع فى طبقات خاصة، أما المجون فكان يشيع فى الطبقة المترفة، وأما الشعوبية فكانت تشيع بين نفر من أبناء الأعاجم، وبالمثل الزندقة كانت مقصورة على أفراد . ومن الخطر أن نجعل ذلك كله صفات عامة للمجتمع ؛ فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً ، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه وشعائره ، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد فى الأخلاق ، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان ، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجان وعلى الشعوبيين والملحدين من أعداء الإسلام والعروبة .

وإذا كانت الحانات ودور النخاسة اكتظت فى بغداد وسامراء وغيرهما من مدن العراق بالخمر والقيان والضرب على الآلات الموسيقية ، وشركتها فى ذلك البساتين والأديرة من بعض الوجوه فإن مساجد سامراء وبغداد وغيرهما كانت مكتظة بالعبّاد والنسّاك وكانوا أكثر كثرة من المجّان وأهل الفساد . وكان فى كل مسجد حلقة ، بل حلقات لوعاظ مختلفين كانوا لا يزالون يذكّرون الناس بالله واليوم الآخر وأنهم معروضون يوم الحساب فإما إلى الجنة والنعيم وإما إلى النار والجحيم . واختلط الوعظ بقصص دينى كثير على نحو ما صوّرنا ذلك فى كتاب العصر العباسى الأول ، وكثر حينئذ النساك والزهاد فى متاع الحياة الدنيا ، وعاشوا معيشة كلها شظف وتقشف وتبتل وعبادة ، واقرأ فى تراجم الفقهاء والمحدّثين لهذا العصر فستجدهم أو على الأقل ستجد كثرتهم وهم يُعَدُّون فى العالم الإسلامى بالمئات إن لم يكن بالآلاف قد أخذوا أنفسهم بالانصراف عن متاع الحياة الدنيا ، بل لكأنما تجرّدوا للجهاد فى سبيل ذلك أسوة بزاهد الأمة الأول محمد صلى الله عليه وسلم ، منتظرين ما عند الله من النعيم الخالد الذى لا يزول . ويكفى أن نرجع إلى ترجمة واحد منهم مثل إبراهيم[1] بن إسحق الحربى ، وكان من كبار المحدثين ، وكان لا يأخذ على محاضراته فى الحديث أجراً من أحد ، إذ عزف عن كل متاع فى الحياة ، وعاش معيشة زاهدة مبالغة فى الزهد إلى أقصى حد ، حتى إنه ليرفض

(١) راجع فى ترجمته تاريخ بغداد ٦/٢٧ ومعجم الأدباء ١/١١٢ والأنساب للسمعانى ١٦٢ وصفة الصفوة ٢/٢٢٨ وشذرات الذهب ٢/١٩٠ والنجوم الزاهرة ٣/١١٦ ويقال : كان يقاس بابن حنبل فى علمه وزهده .

فى إباء أى مال يأتيه من خليفة أو صاحب سلطان أو جاه ، ويُرْوَى أن المعتضد أرسل إليه بعشرة آلاف درهم مع بعض أتباعه ، فردَّها ، وعاد الرسول يقول له إن المعتضد يسألك أن تفرقها فى جيرانك ، فقال له : عافاك الله ، هذا ما لم نشغل أنفسنا بجمعه فلا نشغلها بتفرقته ، قل لأمير المؤمنين إن تركتنا أقمنا وإلا تحوَّلنا عن جوارك .

وظل يلزمه صداع خمسًا وأربعين سنة بدون أن يخبر به أحداً ، وقد أفنى من عمره ثلاثين سنة لا يأكل إلا رغيفًا واحداً فى اليوم والليلة ، إن جاءته به زوجته أو إحدى بناته أكله وإلا بقى جائعًا ظامئًا إلى الليلة الثانية . وهى درجة رفيعة فى الزهد ، وكان على غراره كثيرون من المحدثين والفقهاء يصومون الدهر ويعيشون على الكفاف بل على أقل من الكفاف كما يعيشون على العبادة والورع .

وأخذت تتسع فى هذا العصر موجة التصوف ، وكانت مقدماتها أخذت تظهر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى عند إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخى صاحب اليد الطولى فى مبدأ التوكل وإشاعته[١] بين أوائل المتصوفة ومعروف الكرخى الذى أشاع مبدأ المعرفة الإلهية وأنها غاية المتصوف وحدها لا النجاة من عذاب الآخرة[٢] . ويعرض القشيرى فى رسالته أقوالا مختلفة فى اشتقاق كلمة صوفى ، وهل هى من الصوف لأنهم كانوا يلبسونه تمييزاً لهم من أهل الرَّفَه والتنعم ، أو هى من الصَّفَاء أو هى من الصُّفَّة نسبة إلى أهل الصفة الذين كانوا ينقطعون للعبادة فى المسجد لعهد الرسول عليه السلام ، ولا يَدْلى القشيرى برأى حاسم ، وذهب البيرونى إلى أنها مشتقة من كلمة صوفيا اليونانية بمعنى الحكمة[٣] . ويبدو أن أوجه الآراء الرأى القائل بأن الكلمة مشتقة من الصوف لأن كثيرين من الزهاد فى القرن الثانى الهجرى كانوا يلبسونه ، وشاع لبسه بين المتصوفة بعد ذلك .

ومنذ أواسط القرن الماضى يُعْنَى المستشرقون بدراسة التصوف وبيان التأثيرات الأجنبية التى أثرت فى نشأته وتطوره ، وكان من أسبقهم إلى ذلك فون كريمر ،

---

(١) النجوم الزاهرة ٢/٢١ .

(٢) فى التصوف الإسلامى لنيكلسون ترجمة أبى العلا عفيفى وطبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ص ٥ .

(٣) ما للهند من مقولة للبيرونى (الطبعة الأوربية) ص ١٦ .

وكان يذهب إلى أن التصوف يشتمل على عنصرين أساسيين ، عنصر مسيحى وعنصر بوذى هندى ، ويتضح العنصر الثانى — عنده — فى فكرة وحدة الوجود التى تمثلها ، كما يقول ، الحلاج فى أواخر القرن الثالث[١] الهجرى . وذهب نيكلسون فيما بعد إلى أن الحلاج لم يتمثل هذه الفكرة لا هو ولا غيره من متصوفة القرن الثالث. وممن شدد على التأثير الأجنبى جولدتسيهر ، إذ ربط بين التصوف وتعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يندرج فيها من مذهب الفيض ووحدة الوجود ، كما ربط بينه وبين البوذية[٢] الهندية . وخفف من حدة القول بهذا التأثير الأجنبى ماسينيون فى بحوثه عن الحلاج ، إذ ذهب إلى أن التصوف نشأ من صميم الإسلام نفسه ، وإن تأثر فى الطريق بمؤثرات الثقافة الهيلينية التى كانت منتشرة فى الشرق منذ ميلاد المسيح[٣] . وبالمثل خفّف من حدة القول بالتأثير الأجنبى نيكلسون ، وإن لاحظه مع مر الزمن ، كما هو الشأن عند ذى النون وتأثره فى رأيه بالأفلاطونية الحديثة إذ كان على علم بالحكمة اليونانية الشائعة فى عصره ، وأيضًا كما هو الشأن عند أبى يزيد البسطامى وتأثره فى رأيه بالفلسفة الهندية الفارسية . على أنه مضى فى بحوثه يُعلى من شأن التأثير الإسلامى فى نشأة التصوف ، ويقلل من أهمية التأثيرات الأجنبية ، وكان أهم معول هدم به القول بهذه التأثيرات ما كان قد تبادر لكثير من الباحثين من إيمان أبى يزيد البسطامى والحلاج بنظرية وحدة الوجود ، فقد نفاها عنهما ، ولم يثبتها إلا منذ ابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ . وبذلك انتهى إلى القول بأن جميع الأفكار التى وُصفت بأنها دخيلة على المسلمين ووليدة ثقافة أجنبية غير إسلامية إنما هى وليده الزهد والتصوف اللذين نشآ فى الإسلام وكانا إسلاميين فى الصميم[٤] .

وإذن فالتصوف إسلامى فى جوهره وفى نشأته ونموه وتطوره ، وهو الرأى العلمى الصحيح ، ولكى نتصور التصوف فى دقة فى أثناء هذا العصر ، يحسن أن نستعرض أئمته الذين غرسوا مبادئه وأحواله ومقاماته ومصطلحاته فى نفوس العصور التالية ،

---

(١) انظر نيكلسون فى مبحثه عن الحلاج ومقدمة عفيفى .

(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر (طبعة دار الكاتب المصرى) ص١٣٦ وما بعدها.

(٣) راجع مقدمة عفيفى لكتاب نيكلسون السالف .

(٤) انظر مقدمة عفيفى وكتاب فى التصوف الإسلامى فى مواضع مختلفة .

وأولهم الحارث[١] بن أسد المحاسبي المتوفى سنة ٢٣٤ وقد نُشرت له رسائل مختلفة ، وهى تدل بوضوح على أنه جدَّ فى ربط التصوف بالشريعة على طريقة أهل السنة . وكان يعتنق مذهب الشافعى ويرى أن الرافضة خرجوا على حدود الإسلام وملته ، ولذلك يُرْوَى أنه لما مات أبوه وكان هو فى عَوَز وإملاق فى حين خلَّف أبوه ثروة طائلة رفض أن يأخذ منها درهمًا ، لأن أباه كان رافضيًّا ، وقال : أهل ملتين لا يتوارثان . ومن أهم ما يميزه بين خلفائه ومعاصريه من المتصوفة أنه دعا فى قوة إلى محاسبة النفس ومراقبتها ومجاهدتها وتزكيتها باتباع الكتاب والسنة ، وهو أول من فرق بين التوكل على الله وبين الرضا بقضاء الله وأحكامه ، وجعله — وتابعه فى ذلك متصوفة العراق — من الأحوال التى لا تكتسب ، على حين جعله متصوفة خراسان من المقامات[٢] ، ورفض أن يفضى التوكل إلى عدم التكسب ، فلا بد من السعى فى الأرض سعيًا ينال به الإنسان الفضل والثواب .

وكان يعاصره ذُو النون[٣] المصرى المتوفى سنة ٢٤٥ ويرى نيكلسون أنه الواضع الحقيقى لأسس التصوف ، إذ هو — كما يقول ابن تغرى بردى — أول من تكلم فى مصر فى الأحوال والمقامات ، ويعمم ذلك نيكلسون ، فيجعله لا أستاذ المصريين وحدهم فى التصوف ، بل أستاذ المشارقة أيضًا ، وينقل عن تذكرة الأولياء للجامى حديثه عن العارف والمعرفة ، وفيه قسم المعرفة ثلاثة أقسام : قسما مشتركًا بين عامة المسلمين ، وقسمًا خاصًّا بالفلاسفة والعلماء ، وقسمًا خاصًّا بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم . وبذلك فَصَل المعرفة الصوفية عن المعرفة العلمية والفلسفية ، فالأولى قلبية ، تنزع نحو القلب ، وتعتمد على التجربة الحدسية ، والثانية عقلية

---

(١) نشأ فى البصرة ثم انتقل فى شبابه إلى بغداد ، انظر فى ترجمته تاريخ بغداد ٨/٢١١ والأنساب للسمعانى ٥٠٩ وابن خلكان وطبقات الشافعية للسبكى ٢/٢٧٥ ومرآة الجنان ٢/١٤٢ والنجوم الزاهرة ٢/ ٣١٦ والتهذيب لابن حجر ٢/١٣٤ وكتاب طبقات الصوفية للسلمى (طبع باريس) ص ٤٦ .

(٢) انظر باب الرضا فى الرسالة القشيرية .

(٣) راجع فى ترجمة ذى النون وآرائه الفهرست ص ٥١٧ وطبقات الصوفية للسلمى ص ٢٣ ، وتاريخ بغداد ٨/٣٩٣ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥/٢٧١ ومرآة الجنان لليافعى ٢/١٤٩ والنجوم الزاهرة ٢/٣٢٠ والطبقات الكبرى للشعرانى ١/٥٩ وأخبار الحكماء للقفطى ١٨٥ وشذرات الذهب ٢/١٠٧ ورسالة القشيرى فى ص ٩ وفى مواضع متفرقة ونيكلسون ص ٧ وما بعدها .

تعتمد على الأفكار كما تعتمد على المنطق . ومن هنا كان التصوف ليس علماً ولا فلسفة ولا مذهباً ، وإنما هو أحوال ومقامات ، ويقال إنه سُئل كيف عرف ربَّه ؟ فقال : « عرفتُ رَبِّى بربي ولولا رَبِّى لما عرفت رَبِّى » ، وسُئل عن الذكر ، فقال : « هو غيبة الذاكر عن الذكر » ، وقال : « ليس من احتجب عن الخلق بالخلوة كمن احتجب عنهم بالله » . وكأنه هو الذى وصل فى قوة بين التصوف وعلم الباطن ، أو قل هو الذى فسح فيه للباطن . وقد قال إنه مقصور على الخواص من أهل الله ومن هنا فرق دائماً بين الخواص والعوام ، ومن قوله : « توبة العوام تكون من الذنوب وتوبة الخواص تكون من الغفلة » . وكان يقول : « إياك أن تكون بالمعرفة مدَّعياً » يقصد معرفة الصوفية القلبية القائمة على الإدراك الحدسى . ومن قوله أيضاً : « الصوفى مَنْ إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق » وكان يقول إن العارف (الصوفى) لا يلزم ربه فى حالة واحدة وإنما يلزمه فى الحالات كلها . وكانت تجرى فى كلامه ألفاظ المحبة والوجد ، وكان يقول علامة التوكل انقطاع المطامع . وكان يقول : « من علامات المحب لله متابعة حبيب الله فى أخلاقه وأفعاله وأوامره وسننه » . وفى ذلك ما يدل بوضوح على أنه لم يحدث عنده أى انفصام بين التصوف والشريعة ، فهو يكملها بمحتواه وممارساته العملية ، بل هو لا يكون له قوام بدونها ، وبدون ما شرعت من فرائض ونوافل وعبادة وتقوى .

وكان السَّرِىّ[1] السَّقَطى المتوفى سنة ٢٥١ شيخ متصوفة بغداد وإمامهم فى وقته ، وكان تاجراً فهجر التجارة ولزم بيته وانقطع للعبادة ، ويقال إنه أول من تكلم ببغداد فى لسان التوحيد وحقائق الأحوال ، أو هو بعبارة أخرى أول من تكلم فى المقامات والأحوال هناك ، وبذلك يكون أول تال لذى النون تحدث فيها حديثاً مستفيضاً . وكان يقول : « التوكل الانخلاع عن الحول والقوة » و : « من علامات المعرفة بالله القيام بحقوق الله » ، وهو بذلك كان يصل بين التصوف والشريعة ، بل يجعلها قوامه ، ويوضح ذلك أنه سُئل عن المتصوف من هو ؟ فقال :

---

(١) راجع فى ترجمة السقطى طبقات الصوفية للسلمى ص ٤١ وابن خلكان وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥/٧١ وطبقات الشعرانى ١/٦٣ .

« هو اسم لثلاثة معان ، هو الذى لا يطفئ نور معرفته نورَ ورعه ولا يتكلم بباطن عن علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب ، ولا تحمله الكرامات من الله على هتك أستار محارم الله »[١] ، وهو يذكر الكرامات ولعله لم يكن يريد معناها الدقيق الذى عُرف للكلمة فيما بعد وأن الله يُجْرى على أيدى الأولياء ما يشبه معجزات الأنبياء . وكان يكثر من الحديث عن محبة الله منشداً :

مَنْ لم يَبِتْ والحبُّ حَشْوُ فؤادِهِ لم يَدْرِ كيف تفتُّت الأَكْبادِ

ويبدو أنه كان يأخذ نفسه بمجاهدات زهدية وتقشفية عنيفة .

وإذا كان ذو النون هو الذى أدخل فى التصوف بقوة النزعةَ نحو المعرفة الإلهية، فإن أبا يزيد طيفور[٢] بن عيسى البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ هو الذى أدخل فيه — على ما يظهر — فكرة الفناء فى الذات العلية ، وقد أثبت له نيكلسون كثيراً من الأقوال من مثل قوله : « للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه مُحيت رسومه وفنيت هُوِيَّته بهُوِيَّة غيره ، وغُيِّبتْ آثاره بآثار غيره » ، وقوله : « خرجت من الحق إلى الحق حتى صاح منى فىَّ : يا مَنْ أنت أنا ! فقد تحققت بمقام الفناء فى الله ». وروى من أقواله التى تنعكس عليها أفكار وحدة الوجود قوله : « سبحانى ما أعظم شانى » وقوله : « خرجتُ من بايزيديَّتى كما تخرج الحية من جلدها ، ونظرت فإذا العاشق والمعشوق والعشق واحد ، لأن الكل واحد فى عالم التوحيد ». ويمكن أن يُرَدَّ هذان القولان وما ساقه نيكلسون من أقوال له أخرى إلى فكرة الفناء . ومما نسبوه إليه أيضاً قصة معراجه إلى السماء وقد قصَّها العطار بالتفصيل إذ رُوى عنه قوله : « صعدت إلى السماء وضربت قبتى بإزاء العرش » . ولا شك فى أنها قصة منحولة عليه هى وأقواله التى قد تفهم منها فكرة وحدة الوجود على نحو ما أشار إلى ذلك الذهبى فى كتابه ميزان الاعتدال إذ قال : « وقد نقلوا عنه أشياء يشك فى صحتها عنه، منها : « سبحانى » و : « ما فى الجُبَّة إلا الله » و : « ما النار ؟! لأستندنَّ إليها غداً وأقول

---

(١) تهذيب ابن عساكر ٧٨/٦ ونيكلسون ص ٢٩ .

(٢) انظر فى ترجمته طبقات الصوفية للسلمى ص ٦٠ وابن خلكان والرسالة للقشيرى فى مواضع مختلفة وطبقات الشعرانى ٦٥/١ وميزان الاعتدال للذهبى ٣٤٦/٢ والنجوم الزاهرة ٣٥/٣ ونيكلسون ص ٢٢ وما بعدها .

اجعلنى لأهلها فداءً ، وما الجنة ؟! إنها لعبة صبيان . ونسب إليه أهل بلدته بسطام – فى الجنوب الشرقى لبحر الخزر – أنه زعم أن له معراجًا إلى السماء كمعراج الرسول عليه السلام » . ولعل فى ذلك ما يدل على أنه وضعت على لسانه من قديم أقوال وقصص غريبة ، وكأنه تحول شخصية أسطورية فى تاريخ التصوف ورجاله ، ويبدو أنه كانت تجرى على لسانه شطحات وعبارات موهمة كثيرة أعدّت لأن تصبح له هذه الشخصية ، غير أنه مما لا ريب فيه أنه صاحب فكرة الفناء فى الذات الإلهية ، تلك الفكرة التى أخذت مكانًا مهمًّا فى التصوف الإسلامى . ويبدو أنه أول من أدخل فى التصوف فكرة السكر بجانب فكرة العشق الإلهى ، وفى الرسالة القشيرية أن معاصره الصوفى يحيى بن معاذ كتب إليه : « سكرت من كثرة ما شربت من كأس محبة الله » فأجابه : « غيرك شرب بحور السموات والأرض وما روى بعد ولسانه خارج من العطش ، ويقول هل من مزيد »[١] ، وكان ينكر ما يردده الناس عن كرامات الصوفية . وكان يؤمن بأن التصوف لا يقوم بدون الشريعة والمحافظة على فرائضها والصدوع بأوامرها ونواهيها [٢] .

ونشعر أن معالم التصوف ومبادئه أخذت فى الوضوح منذ أوائل النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، حتى لتنشأ طبقه تحاضر فيه مثل يحيى بن معاذ الذى ذكرناه آنفًا ، ومثل أبى حمزة الصوفى المتوفى سنة ٢٦٩ ، وهو أول من تكلم على رءوس المنابر ببغداد فى اصطلاحات الصوفية من صفاء الذكر وجمع الهمة والعشق والقرب والأنس[٣] ، ومثل أبى سعيد الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ وهو أول من توسع فى الكلام عن الفناء[٤] . ويظهر حينئذ حمدون[٥] القصّار النيسابورى المدفى عام ٢٧١ وقد ذهب بعيداً فى تقشفه ، إذ دعا مريديه إلى سلوك طريق الملامة بأن يتظاهروا

---

(١) الرسالة القشيرية ص ١٤٦ وانظر شذرات الذهب ٢/١٤٣ .

(٢) انظر ترجمته فى ميزان الاعتدال ، ويقول الذهبى : ما أحلى قوله : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتفع فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف هو عند الأمر والنهى وحفظ حدود الشريعة .

(٣) النجوم الزاهرة ٣/٤٦ .

(٤) طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٢٣ .

(٥) انظر السلمى ص ١١٤ وكتاب الملامتية والصوفية وأهل الفتوة لأبى العلا عفيفى .

باتخاذ أشياء ينكرها الشرع ، حتى يتلومهم العوام من حولهم فلا يقفوا على حقيقة تصوفهم وإخلاصهم لله ، ومنهم انتشر مذهب الملامتية بنيسابور ، إذ يُبْدون فى مظهر المذنبين دائما ، مما أعدّ للقعود — فيما بعد — عن النهوض بفرائض الشريعة . أما فى هذا العصر فنجد المتصوفة دائمًا يعلنون تمسكهم بها ، حتى ليقول سهل ابن عبد الله التسترى الصوفى المتوفى سنة ٢٨٣ : « أصولنا سبعة أشياء : التمسك بكتاب الله تعالى ، والاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكفّ الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق »[1] وفى رسالة القشيرى أنه كان ينكر الكرامات إنكاراً شديداً .

وأهم صوفى ظهر بأخرة من القرن الثالث الجنيد[2] المتوفى سنة ٢٩٧ ويُنْعت بالقواريرى الخزّاز ، لأن أباه كان يبيع الزجاج وكان هو يبيع الخزّ ، وأصله من نهاوَنْد بالقرب من همذان ، إلا أن مولده ومنشأه ببغداد ، وهو ابن أخت السرىّ السقطى وعنه أخذ الطريقة ، وأخذها السَّرِىُّ بدوره عن معروف الكرخى . وكان ورده فى اليوم ثلثمائة ركعة وثلاثين ألف تسبيحة ، وفى طبقات الصوفية للسُّلمى أنه كان يقول : « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات » . ويقال إنه أقام عشرين سنة لا يأكل إلا من الأسبوع إلى الأسبوع ، وكان يصلى كل ليلة أربعمائة ركعة . وكان يقول : « طريقنا مضبوط بالكتاب والسنة ، ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقّه لا يُقْتَدى به » . وتتردد على لسانه كلمتا الطريق والمريد ، مما يدل على أنه أخذ يشيع منذ العصر العباسى الثانى نظام الطرق والمريدين فى التصوف ، فللإمام الصوفى طريقة ، يحملها عنه مريدوه من تلاميذه وأتباعه وينشرونها فى موطنه وغير موطنه من العالم الإسلامى . وأتاح هذا النظام البقاء لكثير من طرق الصوفية ، وصَبْغها بصبغة جماهيرية شعبية ، وإن كان قد رشّح لأن يكون الارتباط فى الطريقة بالإمام الصوفى نفسه لا بمبادئه وأفكاره ، وبذلك أوجد صلة وثيقة بين الشيخ

---

(١) السلمى ص ٢٠٣ .

(٢) انظر فى ترجمة الجنيد تاريخ بغداد ٢٤١/٧ والرسالة القشيرية فى مواضع مختلفة وابن خلكان والسلمى ص ١٤١ وطبقات الشافعية للسبكى ٢٦٠/٢ ومرآة الجنان لليافعى ٢٥١/٢ والنجوم الزاهرة ١٦٩/٣ وشذرات الذهب ١/٢ .

ومريديه وتلاميذه ، فكانوا يأتمرون بتوجيهاته ، وكانوا يحيطونه بهالة من الإجلال والتوقير ، هيأت فيما بعد لأن تصبح لكل شيخ قداسته . وكان الجنيد يستخدم أسلوباً مليئاً بالمبالغات فى الترغيب والترهيب زاخراً بالألفاظ الطنانة الكثيرة الإيهام والإيحاء ، وأخذ عنه تلميذه الحلاج هذا الأسلوب وأصبح ميزة أساسية له فى أقواله وأشعاره ، وهو أسلوب كثرت فيه الشطحات ، ولاحظ ذلك القدماء إذ نرى السراج فى كتابه اللمع يعرض طائفة من شطحات الجنيد ويفسرها تفسيراً بيناً . وأشهر تلاميذ الجنيد الحسين بن منصور المشهور باسم الحلاج وسنعرض له بالحديث فى غير هذا الموضع .

ومن أهم الصوفيين المتأخرين فى العصر الحكيم[1] الترمذى محمد بن على بن الحسن بن بشر المتوفى سنة ٣٢٠ وكان يحاول صنع أسس فلسفية لعلم الكلام ، غير أنه مضى يدرس التصوف وتعمق فيه كما تعمق فى دراسة اتجاهات الشيعة ، وعاش للتصوف يؤلف فيه كتباً كثيرة . ويقال إنه هو الذى أدخل بقوة نظرية الولاية فى البيئات الصوفية وكل ما جرّت إليه من إيمان بكرامات الصوفية أولياء الله وصفوته فى خلقه ، وقد ألف فيها كتاباً سماه ختم الولاية زعم فيه أن للأولياء خاتماً كما أن للأنبياء خاتماً وأن الولاية تفضل النبوة لقوله عليه السلام : « يغبطهم النبيون والشهداء » إذ لو لم يكن الأولياء أفضل منهم ما غبطوهم ! ! وذكر فى الكتاب المذكور أن عيسى يعود فى آخر الزمان ، وبذلك يكون خاتم الأولياء ، وثار عليه أهل بلدته « ترمذ » ففر إلى نيسابور وبها توفى . وقال السبكى : دافع عنه السلمى معتذراً عنه ببعد فهم الفاهمين . وعلى كل حال يُعَدّ الترمذى الحكيم أول من عمل على إشاعة فكرة الاعتقاد بولاية الصوفية وما جرت إليه من تصور الكرامات .

ومنذ أواخر القرن الثالث الهجرى تلقانا ظاهرة جديدة فى بيئات المتصوفة ، فقد كان السابقون منهم لا ينظمون الشعر بل يكتفون بإنشاد ما حفظوه من أشعار المحبين ، وهم فى أثناء ذلك يتواجدون وجداً لا يشبهه وجد ، أما منذ أبى الحسين النورى

---

(١) انظر فى ترجمة الحكيم الترمذى طبقات الصوفية للسلمى ص ٢١٦ وطبقات الشافعية للسبكى ٢/٢٤٥ وطبقات الشعرانى ١ / ١٠٦ ورسالة القشيرى فى مواضع مختلفة وتذكرة الحفاظ للذهبى ٢/٢١٨ .

المتوفى سنة ٢٩٥ فإن صوفيين كثيرين ينظمون الشعر معبرين به عن التياع قلوبهم فى الحب آملين فى الشهود مستلهفين متضرعين ، مصورين كيف يستأثر حبهم لربهم بأفئدتهم استئثاراً مطلقاً ، نذكر منهم سمنون أبا الحسين الخواص المتوفى سنة ٣٠٣ وأبا على الروذبارى المتوفى سنة ٣٢٢ والشبلى دُلَف بن جحدر المتوفى سنة ٣٣٤ وجميعهم من تلامذة الجنيد .

وواضح مما تقدم أن العصر العباسى الثانى لم يكد ينتهى حتى تأصلت فى التصوف فكرة المعرفة الإلهية ومحبة الله ، كما تأصلت فكرة أن الصوفية أولياء الله ، وسنرى فى موضع آخر كيف أن الحلاج أحاط الرسول عليه السلام بهالة قدسية تشبه الهالة التى يحيط بها المسيحيون المسيح عليه السلام ، وكان لكل ذلك أثر عميق فى حياة التصوف وتطوره على مر الأجيال .